د. سامية عبدالرحمن
كلية البنات - جامعة عين شمس

" الحريـــة "
فـــى
فلسفـــة رســـل

مقدمـــة

الحرية من المبادئ الأساسية التى لايختلف عليها أحد . وهى لم تعد مجرد وضع سياسى أو اجتماعى تتخذه دولة من الدول أو شعب من الشعوب فحسب ، بل هى مقتضى من مقتضيات الحياة السليمة ، لا غنى عنه للفرد والمجتمع بحيث تتكامل شخصية كل منهما وسعادته .

الواقع أن حياتنا العملية اليومية إنما تقوم على افتراض أن الإنسان حر ، وإلا لأصبحت هذه الحياة عقيمة بلا معنى . لهذا فإن مشكلة الحرية مشكلة قديمة قدم الإنسان ذاته ، لأنه – بين كائنات الطبيعة جميعاً – أشدها حنيناً إلى التخلص من جبرية الظواهر ، وأقواها نزوعاً نحو التحرر من أسر الضرورة ، ومن قوانين وأعراف المجتمع .

لو رجعنا إلى تاريخ الفكر الفلسفى لوجدنا أن " الحرية " قد آثارت اهتمام الغالبية العظمى من الفلاسفة والمفكرين، وبوجه خاص ، فى الفكر الحديث والمعاصر ، حيث احتلت مكان الصدارة فى فكر سبينوزا ، لوك ، مونتسيكو ، روسو ، بنتام، چون ستيورت مل .

هذا وقد أصبحت"الحرية" هى المحور الأساسى الذى يقوم عليه الفكر الوجودى المعاصر .

« الحرية فكرة أساسية فى الفلسفة الوجودية سلم بها جميع الوجوديون بلا استثناء» .

وفى القرن العشرين اهتم بدراسة "الحرية" فلاسفة عديدون لعل أهمهم "هوبز" فى كتابه الصادر عام ١٩١١ بعنوان "الليبرالية أو مذهب الأحرار Liberalism ، جون ديوى " فى كتابه : "الفردية قديماً وحديثاً " Individualism old and New 1990 .

وإذا كان فيلسوفنا " رسل " قد لقى من الشهرة وزيوع الصيت ربما ما لم يلقه على الأرجح فيلسوف آخر ، فإن هذا لا يرجع فقط إلى إضافاته الأصيلة فى مجال فلسفة العلوم والرياضيات وغيرها من المجالات الفلسفية الأخرى ، بل يرجع أيضاً إلى دفاعه الحار عن الحرية فى شتى مجالات فلسفته العملية ، " حرية الفرد " هى مدار فكره فى التربية ، الاجتماع والسياسة والأخلاق والدين - على نحو ما سنرى فى ثنايا هذا العمل .

يقول استاذنا الدكتور زكى نجيب محمود فى مقدمة كتابه عن "رسل" : « ثانى الجوانب التى تقرب رسل من عقلى وقلبى هو هذا الدفاع الذى ينهض به فى سبيل حرية الفرد من كل طغيان : طغيان التقاليد الإجتماعية، طغيان الحكومات ، فإن لأوشك أن أرى الصدق كل الصدق فى دعوى "رسل " بأن النظم الاجتماعية والسياسية كلها - فى

أرجاء العالم أجمع – وعلى اختلاف العصور، مؤامرة كبرى يراد بها الحد من حرية الفرد التى ينبغى أن تكون الأساس، وهى المدار لكل نظام فى اجتماع أو سياسة » .

حرية الفرد إذن هى نقطة البدء والمحور الأساسى فى هذا العمل ، وما يتصل بهذا من اعتبارات كآراء رسل فى "التربية ، الأخلاق ، الدين، الاجتماع والسياسة ".

ويتضمن هذا البحث عدة محاور : مقدمة ، مدخل إلى فلسفة رسل العملية

يعرض لنا رسل فى تيار عصره ، لنرى كيف كانت فلسفة رسل فلسفة نقدية حيث تأثر إيجاباً وسلباً بالتيارات السائدة فى عصره (الفكر التجريبى – چون لوك ، چون ستيورت مل) ، الفكر الماركسى ، الفكر الرأسمالى – موقف رسل من كل منهما، رسل والفكر الوجودى، موقف رسل من فلسفات القوة وفلسفة التطور .

– أما المحور الثانى فيدور حول "التربية ، الحرية الفردية .

حيث نعرض هنا لنوعان من التربية ، مايسميه رسل بالتربية السلبية التى تتدخل فيها سلطة الدولة، الكنيسة والوطنية ، الحشد وما إلى ذلك من اعتبارات تحد من شخصية الفرد .

ثم يقدم لنا رسل أهداف التربية الإيجابية ودور المعلم .

– أثر المعتقدات الأخلاقية والدينية على الحرية الفردية.

(٣) "الحرية فى المجتمع" إيضاح ماذا تعنى الحرية فى المجتمع وما هى حدود تدخل الدولة ، محاسن الدولة وعيوبها ، والمجتمع الأمثل فى تصوره .

– التوفيق بين الفردية والمواطنة أو بين الحرية والإبداع الفردى من ناحية والمجتمع أو النظام الحكومى من ناحية أخرى .

(٤) عود على بدء : بيان أهمية الحرية فى تحقيق عالم أفضل ، وصلة رسل بفلسفة سارتر حول هذا المعنى .

هذه الآراء الكثيرة على اختلافها وتعددها ، والتى نقدم لها من خلال هذه المحاور ، والتى أدلى فيها رسل بالكثير من الآراء عن الإنسان وحياته – فى الكثير من مؤلفاته ، سوف نرى أنها قد تبلورت جميعها فى محور واحد هو " الدفاع عن حرية الفرد" : الحرية التى كرس لها قلمه وحياته ، الدعوة إلى الحرية التى تزيد من بهجة الحياة ، ومن الطاقة الحيوية ، والقدرة على الخلق والابتكار والإبداع ، الحرية التى تدعو إلى استقلال الشخصية واحترامها .

* * *

بطاقة حياة :

نشأ رسل على الأفكار الليبرالية وحبه للحرية ، ويذكر رسل فى كتابه " صور من الذاكرة " أن أحداث حياته قد غرست فى نفسه حبه للحرية .*(١)

هذا وقد ورث رسل عن أبيه حرية الفكر ، حيث عزف والده عن المعتقدات المسيحية ، وتحمس هو وزوجته - ليدى رسل - لكل الآراء التى كانت تزلزل المجتمع فى أواخر القرن التاسع عشر ، كالدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق المدنية ، وحق المرأة فى الانتخاب ، حرية الاعتقاد.(٢)

كذلك نشأ رسل الإبن ، لقد كان يمقت أن تستعبد العقيدة أى إنسان من البشر، ولا سيما هذه العقائد التى يتلقاها الأطفال دون أن يكون لهم رأى خاص فيها ، على الرغم مما تنطوى عليه من الخرافة والشعوذة الفكرية ، ولم يخف رسل أن يصرح بأن الكنيسة هى التى تتعمد ذلك وتشاركها الدولة فيه ...لأنهما يريدان أن يطبعا الناس كل بالطريقة التى تجعل الناس أدوات طيعة لتنفيذ أهدافهما ، وذلك دون أن

* نذكر هنا أن هناك علاقة وثيقة بين فكر الفيلسوف الإنجليزى رسل ، والفيلسوف الفرنسى الوجودى سارتر حول "أهمية الحرية فى فكر كل منهما ، حيث ينصب سارتر نفسه حارساً للحرية والسلام ، نصيراً لهما مدافعاً عنهما إذا ما انتهكت حرمتها فى أى بقعة من بقاع العالم الفسيح ، ومن ثم كان دفاع هذا الفيلسوف عن الحرية الإنسانية فى شتى أنحاء العالم ...(سنعود إلى تفصيل هذا فى جزء لاحق) .

يقيما أى اعتبار لحرية الفرد ، وبون مبالاه بما يؤدى ذلك إليه من إلغاء شخصيته ، ونسخ تفكيره ، ومسخ روحه ، والقضاء على ملكاته ومواهبه. وهكذا ينشأ المواطنون بلداء الأذهان ، مطبوعين على الصورة التي أرادتها لهم الكنيسة ، وأرادتها لهم الدولة ، ثم يتكون الرأى العام بعد ذلك من هؤلاء .

يقول رسل : " انظر فى أى بلد من بلاد العالم إلى ما يسمونه "التربية" تجدها تسابقاً بين الهيئات ذوات السلطات للإستيلاء على عقول الناشيء ومشاعره ، استمع إلى رجال التربية يسألون : ما الغاية من التربية ؟ ثم يجيبون : هى إنتاج المواطن الصالح ، وصلاحية المواطن هى دائماً – الموافقة على النظم السائدة ، ويستحيل هنا أن يكون معناها الثورة على تلك النظم ."[٣]

حرية الفكر إذن ظاهرة وراثية فى دم هذا الفيلسوف ويطبق رسل ذلك التفكير على جميع المصائب التى تقاسيها البشرية ، فهو يعزو أسباب الحروب كلها – لا لأسباب إقتصادية كما يفسرها غيره من المفكرين* ، ولكن إلى سوء مناهج التعليم فى مدارس الأمم جميعاً .

نشر بول آرثر شليب Poul Arthur Schlipp ١٩٤٤ كتاباً عن رسل – عرض فيه لفلسفته فى شتى نواحيها – وقدم رسل هذا الكتاب بمقدمة كتبها عن أطوار حياته الفكرية :

* الفكر الماركسى .

يقول : « ماتت أمي وأنا في الثانية من عمري ، وكنت في الثالثة حين مات أبي ، فنشأت في دار جدى الذى أولاني بالعطف، وحين مات جدى تولت جدتى تعليمى ، وكان لها أثر بالغ في تنشئتى الدينية ، حيث كانت تؤمن، بحكم عقيدتها المسيحية، بضرورة أن يكون للأفراد أنفسهم حق الحكم على الأشياء بحيث يكون لضمير الفرد السلطة العليا .

أهدت له إنجيلاً كتبت عليه : « لا يجوز لك أن تتبع كثرة الناس في فعل الشر » .

– في عامه الرابع عشر تقريباً ، اهتم بالدين، وشرع يفكر في البراهين التى تقام على حرية إرادة الإنسان ، وعلى خلوده ، وعلى وجود الله .

وكما يقول رسل : «ظل ثلاثة أعوام يفكر في الدين وانتهى به هذا إلى عدم الإيمان بحرية الإرادة، ونبذ فكرة الخلود ، ولكن ظل على عقيدته في وجود الله حتى نهاية عامه الثامن عشر، وهنا قرأ ترجمة " جون ستيورت مل " الذاتية التى كتبها عن حياته ، قرأ هذه العبارة : «لقد علمنى أبي أن سؤالى "من خلقنى" ؟ هو بلا جواب ، لأنه يثير على الفور سؤالاً آخر ، من خلق الله ؟؟ » – وحين قرأ هذه العبارة استقر رأيه على أن برهان العلة الأولى على وجود الله برهان باطل .(٤)

يقول رسل : « أما الرجل الذى كنت أتفق معه فى الرأى إتفاقاً تاماً فهو "جون ستيورت مل" ، وكان لكتبه الاقتصاد السياسى، الحرية ، خضوع النساء، أثر عميق فى نفسى» .(٥)

فى عام ١٩٢٢ دعى رسل إلى الصين ، ومكث بها نحو عام، وبعد عودته منها ولد له ولدان ، فكانا سبباً فى إهتمامه بالتربية فى المراحل الأولى ، وكان فى هذا يدعو إلى الحرية ، ولكن مع الاعتراف للمدارس بشيء من قسر التلاميذ على قدر من النظام القائم على احترام شخصية المدرس والمدرسة ، لا تقديس ما يلقى على التلاميذ من آراء .

ظل رسل يكتب أكثر من ستين عاماً، حاول خلالها أن يجيب على تساؤلات كثيرة، وأن يحل مشكلات شتى ، وبديهى ألا يستقر على رأى واحد دائماً أزاء نقطة معينة.

يقول رسل :

« أنا لا أخجل على الإطلاق من تغيير آرائى » .

لقد تميز تفكير رسل فى سنى حياته المبكرة بنوع طريف من الشك، لم يكن ليصدق ببساطة تلك الحكايات التى يرويها له الكبار ، ولقد نما هذا الشك مع رسل ليتخذ شكلاً منهجياً ناضجاً فيما بعد ليصبح أحد المعايير التى تحكم فكره. فلم يكن ليسلم بصحة مبدأ سواء فى مجال التربية أو الاجتماع أوالسياسة.. الخ لمجرد أنه لاقى قبولاً

واسعاً لدى جماهير عريضة من المفكرين، فإن رسل - بحكم نزوعه التجريبى - لم يكن ليقبل شيئاً ما قبل أن يفحصه من جميع جوانبه، ويحاول أن ينظر إليه غير متحيز إلى حزب معين، وعلى الرغم من أن أفكاره كانت بحكم هذا النزوع عُرضة للتغير، إلا أن أمراً واحداً لم يعدل عنه رسل طوال حياته .. ألا وهو إيمانه العميق بمبدأ الحرية .

لهذا وجب علينا ونحن بصدد هذه الدراسة أن نتتبع أفكاره الرئيسية فى تطورها وتغيرها ، ولا نأخذ رأياً له فى موضوع معين من كتاب معين على أنه الرأى الأوحد .

ولكن يبقى أن نعلم أن الحرية التى ينادى بها رسل ويجعل منها محور تعاليمه العملية ... إنما هى حرية مسئولة إن صح التعبير .

يذهب رسل إلى إنه لا يمكن أن توجد حرية إلا حينما نعمل وفقاً لأسباب معقولة ، ومسوغات مقبولة - لا بمقتضى قوى خارجية أو علل أجنبية .

« إن الحرية لتقضى أن تكون إرادتنا وليدة رغباتنا، لا وليدة قوى ملزمة تضطرنا إلى أن نفعل ما لسنا نريد أن نفعله ». (٦)

من هذا يتبين لنا أن الحرية هنا هى "الحرية" المسئولة لأن الحرية المطلقة كلمة جوفاء لا معنى لها وهنا يقترب رسل من الفكر الوجودى على نحو ما سنرى .

هــوامــش

(١) الفكر المعاصر : العدد الخامس والعشرون – ١٩٦٧، ص ٢٢٦، سارتر مفكراً وإنساناً ، ص ٢٧١ .

سـارتـر : ضمير عصره ، كرانستون ودانتو ، دار مطابع المستقبل – الفجالة ، اشراف د. رءوف سلامة موسى، ص ٥١ : ٥٤ .

(2) Russell B. : Pirinceples of Social Reconstruction P. I. V.

(3) ------------ : Ibid : p. 7.

(٤) زكى نجيب محمود : برتراند رسل ، ص ١١ ، ٧٦ .

(٥) سامية عبدالرحمن : "المرأة فى فكر چون ستيورت مل" حـ٢ الحرية : ص ١٩ : ٢٧ .

(6) Russell B. : Our Knowledge of external world. p. 58.

(١) رســل فى تيار عصره

ترتبط الفلسفة – فى أى عصر من العصور – ارتباطاً وثيقاً بظروف هذا العصر ، ومناخه ، وأحداثه السياسية والاجتماعية ، ويصدق هذا على فيلسوفنا "رسل" ، ففلسفته مرآة واضحة لأحداث عصره ، ومن ثم لا يمكن فهم فلسفته العملية بوجه عام ، وأفكاره عن الحرية خاصة ، دون فهم هذا العصر والدوافع التى أدت به إلى نتاج هذا الفكر، ومدى تأثره – إيجاباً أو سلباً – بمفكرى عصره ، ذلك أن ثمة علاقة سببية متبادلة بين حياة البشر وظروفهم من ناحية ، وتكوين آرائهم الفلسفية والفكرية من ناحية أخرى .

رسل والفكر التجريبى :

يرى رسل أن هناك علاقة وثيقة بين الفكر التجريبى والفكر الديمقراطى من ناحية ، والفلسفات القطعية (الدُجماطيقية) والفكر غير الديمقراطى من ناحية أخرى* .

الفلسفة التجريبية – فيما يرى رسل – هى الفلسفة التى تقدم تبريراً نظرياً للديمقراطية والتى تتناغم معها .

إن التجريبية تعلمنا أننا يمكن أن نخطئ ، وأن الاعتراف بإمكان الخطأ هو المنبع الأول للديمقراطية .

أما الفلسفات القطعية فهى من ألد أعداء الديمقراطية ، لأنها لاترى إلا وجهاً واحداً للحقيقة، لا يمكن أن يتسرب إليه الخطأ ولا يمكن بالتالى العدول عنه.(١)

لهذا لم يكن غريباً أن يكون چون لوك الذى ارتبط إسمه بالتجريبية – كواحد من أبرز مؤسسيها فى القرن السابع عشر – هو نفسه أبرز من ارتبط إسمه بالليبرالية والحرية فى نفس الوقت .

فلسفة لوك – على نحو ما عبر عنها صاحبها فى كتابه :

« رسالة فى الحكومة المدنية» – إنما تقوم على الإيمان بأن كل حق إن هو إلا حرية ، وأن أولى الحقوق إنماهى الحرية نفسها .

يقول لوك :

« إن الناس جميعاً قد ولدوا أحراراً، أو بمعنى آخر الحرية حالة طبيعية تميز الوجود الإنسانى عامة» * (٢)

چون ستيورت مل:

يقول رسل فى" حديثه عن نفسه" : «أما الرجل الذى كدت اتفق معه فى الرأى إتفاقاً تاماً فهو "چون ستيورت مل" . لقد كان لكتبه : الاقتصاد السياسى، الحرية ، خضوع النساء أثر عميق فى نفسى» .

* قام لوك –الذى طور التجريبية فى مجال المعرفة – بإرساء الكثير من معالم النظرة الليبرالية فى السياسة، أيد التسامح الدينى ، ودعا إلى الحد من سلطة الدولة لصالح الفرد ، كما أيد الملكية الخاصة ، ومبدأ الحرية الاقتصادية ، حرية التجارة ، الذى عرف فيما بعد بالشعارالشهير : دعه يعمل .. دعه يمر – Laisser faire Laisser passer ، ويرفض لوك مبدأ السلطة المطلقة ، ويقرر أن لكل سلطة حدوداً ، والغاية التى تهدف إليها كل حكومة هى المحافظة على ما يمتلكه الأفراد من حقوق حياتهم وحريتهم وأموالهم .. وإلى مثل هذه الآراء ينادى رسل فى حديثه عن الحرية .

ويؤكد "رسل" هذه الصلة الروحية بينه وبين "مل" فيقول :

« إن المرء يستطيع أن ينظر إلى كل ما فى القرن العشرين من رعب وآثام بعين الفيلسوف الراديكالى العقلانى ، ولا يستطيع أحد أن ينكر مكانة "مل" كفيلسوف من أعظم فلاسفة التحرير فى القرن التاسع عشر » .

اهتم "مل" بمشكلة الحرية فى كتابه الذى يحمل هذا الإسم On Liberty، وعالج فيه العلاقة بين الفرد والمجتمع ، والبحث فى الصلة بين الحرية والسلطة ، فقدم لنا أراء سياسية هامة لعلاج سوءات الديمقراطية من ناحية ، وتفادى أخطار النظم الاستبدادية من ناحية أخرى . وقد أقر "مل" أن مشكلة الصراع بين الحرية والسلطة هى من أقدم المشكلات التى عرفها التاريخ السياسى . (٣)

رسل والفكر الوجودى

إنطلاقاً من دفاع رسل عن حرية الفرد ، نستطيع أن نقول أن هناك صلة بين أفكاره عن الحرية ، وبين الفكر الوجودى ، ذلك أن فكرة "الحرية" قال بها جميع الوجوديين بلا استثناء . وهدف الفكر الوجودى هو إبراز شخصية الفرد بحيث يكون القانون داخلياً ذاتياً ينبع من أعماقه ، وليس خارجياً مفروضاً عليه ، كما تدعو الوجودية أن يكون الفرد شخصاً متفرداً متميزاً لا مجرد "نفر" فى قطيع Herd .

إنقاذ الفرد من الطغيان والسيطرة ، سيطرة الجماعة والسلطة هو هدف الفرد الوجودى .

ليس هناك نمط كلى عام لبشرية أصيلة يمكن أن يفرض على الجميع ، والواقع أن فرض مثل هذا النمط أو المطالبة بالتجانس لابد وأن يعنى تدميراً لإمكانية الوجود البشرى الحقيقى للأشخاص الذين نتحدث عنهم ، فهم لايصبحون أنفسهم حقاً إلا بالقدر الذى يختارون فيه أنفسهم بحرية .(٤)

فالوجود الإنسانى أصيل outhentic – على نحو ما قال كيركجورد – بالقدر الذى يمتلك فيه الموجود نفسه ، أما الوجود غير الأصيل فهو الوجود الذى تشكله مؤثرات خارجية سواء كانت هذه المؤثرات ظروفاً أو شرائع أخلاقية أو سلطات دينية أو سياسية أو ماشابه ذلك .

ما يميز الإنسان عن موجودات العالم الأخرى هو ممارسته لحريته وقدرته على تشكيل مستقبله .

يقول كيركجورد : يقوم الفساد الأساسى فى عصرنا على الغاء الشخصية ، فلا أحد يجرؤ أن تكون له شخصيته بسبب الخوف الجبان من الناس ، ومن هنا تنكمش ذاته فى مواجهة الآخرين .

وقد تضافرت جهود الكنيسة مع رجال السياسة والتيار الهيجلى العاتى فى القضاء على شخصية الفرد ومحو الفروق الكيفية الأساسية

بين الناس ، وهبت الحركات الليبرالية السياسية المختلفة تنادى بالمساواة بين البشر، وضاعت حرية الفرد وسط هذا الحشد .(٥)

أماهيدجر ، فقد استمر فى تحليل الوجود الإنسانى، وحاول أيضا أن يميز بين الوجود الأصيل والوجود الذائف الغير مشروع ، فإنسان العصر الحديث - فيما يرى هيدجر - قد أصبح يعيش فى حالة جماعية زائفة ، لأنه قد اتخذ من الوجود مع الآخرين ، ذريعة للتنازل عن وجوده الخاص ، فلم يعد وجوده سوى مجرد إنغماس فى عالم الجمهور ، وضاع الإنسان وتمزق بين كثرة المذاهب والاتجاهات ، وانفصل عن الآخرين، وفقد حريته وصار مجرد موضوع ينطق بلسان الآخرين .

يقول هيدجر :

« إن الذات التى كانت الأنا والمواطن تمزقت فى أناها تماماً ... وتضافرت الأنوات معاً ، وكونت حشداً يسلب الذوات ذواتهم الحقة ، ونجد الأنا الدافعة للأمام تجرى التضحية بها من أجل الحشد الملح الضاغط» (٦)

رسل وسارتر :

شغلت قضية الحرية حيزاً كبيراً من كتابات سارتر - كما هو الحال عند رسل - سواء على المستوى الميتافيزيقى النظرى على نحو

ماعرضها فى كتابه الرئيسى " الوجود والعدم " ، كتابه " الوجودية فلسفة إنسانية ، أو على المستوى العملى على نحو ما أوضحها فى العديد من مسرحياته ورواياته ، كالغثيان ، الجدار ، مسرحية الذباب ، الأيدى الملوثة ، وروايته الأساسية " دروب الحرية " بأجزائها الثلاثة : سن الرشد ، ووقف التنفيذ ، الموت فى النفس .* /

تبنى سارتر دعوة الإنسان فى كل مكان إلى الحرية والتحرر من الخوف والاستعباد فى شتى صوره ، وكانت رواياته ومسرحياته أصدق دليل على ذلك ، حيث كانت تمتلىء بهذه المعانى السياسية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .

مسرحية الذباب على سبيل المثال لاتخلو من مضمون سياسى ، الهدف منه مقاومة كل مامن شأنه أن يسلب حرية الإنسان وبهذا تصبح الحرية تحرراً من كل استعباد وسيطرة.(٨)

---

* تقترن الوجودية فى أذهان عامة الناس باسم الفيلسوف والكاتب والروائى المسرحى ، والناقد الفرنسى ، جان بول سارتر J.P.Sartcre (١٩٠٥) والسبب فى هذا انه قد أذاع هذه الفلسفة فى مختلف الأوساط بعد أن كانت مقصورة – عند منشئيها الحقيقين – على أهل الفلسفة فحسب ، وعلة هذا الذيوع أنه أديب وناقد ، إضافة إلى أنه أشترك فى الشئون العملية السياسية ، أصبح اسمه يتردد كثيراً ، وأنه واضح الأسلوب ، لاذع القلم ، ميال إلى الكفاح ... وكل هذه عوامل فعاله لاكتساب شهرة سارتر والتى تشبه إلى حد كبيرما حظى به رسل من شهرة أيضاً (٧).

يقول سارتر فى "سن الرشد"

ليس ثمة شيء يمكن أن ينقذ الإنسان من نفسه ، بل عليه هو أن ينقذ نفسه بنفسه من الماضى ، الحاضر الذى يوجد فيه ، وإلا لتحجر وأصبح شيئاً ، فعلى الإنسان إذن أن يكون "أمام نفسه" باستمرار ، فالحياة تتألف من المستقبل ، كما تتألف الأجسام من الخلاء.(٩)

ويؤكد سارتر المعنى الرائع للحرية ، والابتعاد عن آراء الحشد فى مسرحية "الأيدى الملوثة" Les Mains Sales ومغزى هذه المسرحية يتلخص فى قول سان چوست Saint Just : " بنفس الأحجار تستطيع أن تبنى للحرية معبداً أو قبراً ."* (١٠)

* بطل هذا العمل (هوجو) يريد أن يقوم بأفعال فيها مخاطرة ، ويتحمل عبء مسئولية هائلة، إلى درجة التضحية بحياته فى سبيل إنقاذ كرامته وعدم المساومة على مبادئه .
ومغزى هذا العمل هو الصراع بين الفرد المتوحد بمبادئه الأبى فى مواقفه ، وبين ما يسميهم سارتر ، اللئام أو الأوغاد Salauds، هؤلاء منافقون ، مشايعون للقاعدة العامة والعُرف المألوف مساومون على مبادئ الشرف والكرامة فى سبيل الظفر بنجاح مادى رخيص ، يسلكون حياة آلية رتيبة مطردة المجرى ، بحيث يمكن أن تستبدل أى واحد منهم دون أن يتغير شيء ، لأنهم يضربون جميعاً على قالب واحد ، ومثلهم مثل المصنوعات ذات الانتاج بالجملة . أما الشخص الفريد فهو الذى يعزف عما هو ثابت كى يفسح المجال أمام تلقائية الفعل وحرية الانبثاق ، وهو الذى يطرح مايسمونه "الواجبات" أعنى تلك الأوامر التى تفرض علي أفكارنا وعواطفنا نظاماً صناعياً وتقسرنا على الدخول فى قوالب تعسفية .

سارتر : الموقف الأساسي للحرية :

بداية ترتبط الحرية عند سارتر - كما هي في الفكر الوجودي - بالوجود الإنساني. فالإنسان لا يوجد أولاً ثم يكون حراً بعد ذلك، وإنما ليس ثمة فارق بين وجود الإنسان، ووجوده حراً .

إن الإنسان المحكوم عليه بالحرية يحمل على كتفيه عبء العالم كله ، فهو مسئول عن العالم ، ومسئول عن نفسه بإعتباره لوناً من الوجود.(١١)

وترتبط الحرية عند سارتر بالعدم أي قدرة الوعي على التجاوز - تجاوز الإنسان لذاته إلى شيء أعلى ، التطلع نحو المستقبل ، وهنا ترتبط الحرية بالقلق ، وبسبب هذا الشعور بالقلق الذي يصاحب الإنسان الحر، أحيانا ما يهرب أو يفر - كما يقول سارتر - من الحرية، وهذا ما يطلق عليه سوء النية أو سوء الإيمان ، أما " الرجل حسن النية أو طيب الإيمان فهو الذي يتحمل مسئولية الحرية التي اختارها .(١٢)

والأنماط التي تتصف بسوء النية - كما ذكرنا سابقاً - أحياناً يطلق عليهم سارتر "الجبناء les lêches ، القذرين les salouds أو رجل الجمهور crowd وهو ما يفر من أفعاله ومن حريته ومن قلقه بأن ينسب كل شيء إلى الآخرين . وهم ومن على شاكلتهم يثير اشمئزازه.(١٣)

وفى الحقيقة أننا نفعل ذلك فى معظم الأحيان ، فنحن دائماً على استعداد لأن نلجأ إلى الإيمان بالجبرية إذا كانت حريتنا ومايترتب عليها من قلق ودوار – على حد تعبير كيركجورد – تثقل علينا ، ونحن نسعى – أحياناً أخرى– فى محاولتنا للفرار من المسئولية والقلق إلى إذاحة هذه المسئولية وتبديدها على الآخرين .

يقول هيدجر :

إن الفرد يهرب من حريته فى العامية اليومية فهو يغرق فى الجمهور، ويصبح بذلك مجهولاً بين الآخرين .

من الخواء والعدمية إلى المسئولية والانخراط فى العمل :

فى عام ١٩٣٨ نشر سارتر رواية "الغثيان" La Nausée ثم مجموعة قصصه القصيرة "الجدار " Le Mur فى العام التالى * .

وفى هذه القصة ، و فى الجدار يصور سارتر "خواء الحياة الإنسانية" ، ولكن هذه المرحلة سرعان ما تنتهى حينما يشارك سارتر

---

* شعر سارتر باليتم وهو صغير ، وقد تجلت له هذه التجربة فى سائر بنى عصره ، فظهروا له وكأنهم جميعاً منفصلين – مغتربين . هذه الرواية تبدو فى صورة مذكرات رجل مثقف هو "أنطوان روكانتان" – هذا الرجل يعيش وحيداً منعزلاً ويعانى أشد المعاناة من وحشته وكآبته ، وإنعدام القصد فى حياته ، وهذا ما يسبب غثيانه ، فهو يحتقر الناس والأشياء لمجرد وجودها ، بينما لا توجد أية أسباب للوجود ، فهو يرفض وجود سبب كونى أو حتى غرض إنسانى .

فى " المقاومة " خلال سنوات الحرب ، وقد كتب يقول :" لقد علمتنى الحرب ضرورة الإنتماء" . وتحولت الحرية الفارغة إلى حرية التزام ومسئوليه وانخراط فى العمل فى مسرحيته التى أصدرها عام ١٩٤٣ "النباب " Les Nouches ، والتى فيها يتحمل البطل مسئوليته ، ومن الواضح أن المسرحية قد نقلت إلى الفرنسيين زمن الإحتلال .

وقد أراد سارتر بهذه المسرحية أن يقول لهم ، أن على الإنسان أن يتصدى للمغتصب ، وإذا قاموا بواجبهم هذا ، فإن عليهم أن يتحملوا نتائج أعمالهم التى فرضتها عليهم اختيارهم الحر وإرادتهم المسئولة .

فى عام ١٩٤٧ أصدر سارتر الجزء الأول من كتابه النقدى "مواقف"، ثم نشر الجزء الثانى من هذا الكتاب فى مجلته "الأزمنة" تحت عنوان : ماهو الأدب Qu'est ce que la libterature "

يقول سارتر فى هذه الدراسة :

« ليكن المؤلف كاتب رسائل ، أو مقالات أو هجاء أو قصاص ، وليقتصر موضوعه على العواطف الفردية أو لينقد نظام المجتمع ، فهو فى كل هذه الأحوال رجل حر ، يتوجه بحديثه إلى أحرار ، وليس له سوى موضوع واحد هو الحرية» .

يكتب ليكشف عن حقيقة واقعة ، فإذا وصف حالة من حالات الظلم مثلاً ، فلا يصفها من أجل معرفة القارئ بها فحسب ، بل ليبعث فيه

الحركة لعمل شيء من أجلها ، بمعنى أن أبعث من وراء تناولها السخط في نفس القارئ والكشف عن مساوئها ، وأعمل على ازالتها» .

فالكتابة إذن طريقة من طرق فرض الحرية ومتى شرعت فيها ، إن طوعاً أو كرهاً ، فأنت كاتب ملتزم» .

في عام ١٩٥٢ أصدر سارتر كتابه الفذ "القديس چينيه ، كوميدى وشهيد Sant Genet ,Comedien et marture " ويقول عن هذا الكتاب:

« لقد حاولت أن أبين في هذا الكتاب ، بأكثر مما فعلت في أي كتاب آخر "معنى الحرية " .

جهود سارتر في الدعوة إلى السلام

أخذ سارتر يولى الناحية السياسية اهتماماً أكثر ، وفي عام ١٩٤٩ أيد "النضال لإنهاء الحرب في الهند الصينية " ، ندد في ١٩٥٠ مع ميرلوه بونتى ، بالمعسكر السوفيتى ، وأدان هجوم كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية .

كما أدان سارتر هجوم انجلترا وفرنسا على مصر وأخذ يدافع عن حقوق وشعب مصر . (راجع ص٧٩ ، ٨٢ - ورفض سارتر جائزة نوبل ١٩٦٤) .

ليس غريباً إذن أن تكون الحرية - في بادئ الأمر - حرية ميتافيزيقية لا يعنيها الفعل أو العمل، وإنما الإبقاء عليها من حيث هي حرية .

«إن كل ما أريده هو الإبقاء على حريتى»[١٤]

ولكن تحولت الحرية الفارغة إلى حرية التزام وموقف ، وأصبح الإنسان حر لا فى الفراغ ولا فى المطلق ولكن فى موقف معين وبالنسبة إلى قضية معينة .

«لقد قمت بعملى يا إلكترا ... وسأحمله على كتفى ... وستزداد فرحتى ما ازداد الحمل ثقلاً علىّ لأن حريتى هى إياه » .[١٥]

دروب الحرية :

تحول سارتر إذن من الحرية الميتافيزيقية إلى الحرية العملية أو الحرية المسئولة التى تظهر من خلال موقف ، وقد أبان سارتر عن هذه الحرية فى سلسلة روايات "طرق الحرية" Les chemins de la liberté بأجزائها الثلاثة : سن الرشد L'Age de Raison 1945 ، التأجيل أو وقف التنفيذ Le Sursis ، الموت فى النفس La Mort Dans l'ame أما الجزء الرابع : الفرصة الأخيرة Le Derniere chane ، فلم ينشر * ،

* يرى ميردوخ أن لدروب الحرية ثلاثة أبطال، يمثل كل منهم "ضميراً" مختلفا وأولهم هو المثقف الحائر "ماتيو" ، وثانيهم هو الشاذ جنسياً دانييل . وثالثهم هو الشيوعى برونيت .

– ويرى ميردوخ أن ماتيو هو سارتر .

وتدورأحداث الجزء الأول من هذه الرباعية "سن الرشد " فى عام ١٩٣٨ ، بين مجموعة من الشباب والشابات البارسيين ، بين فنانين وطلبه وراقصات . وماتيو يدرس الفلسفة لتلاميذه وينشد التحرر من كل قيد، ويتطلع إلى الحرية المطلقة . =

= ولكنه يواجه مشكلة عويصة، إذ أن فتاته ، مارسيل قد حملت منه ، وهو لا يريد أن يتزوجها ، ويرتبط إلى الأبد بزوجة وخمسة أطفال ، ويصر على أن يبقى حراً ، ومرسيل التى تحبه لا تدهش لطلب ماتيو لها أن تجهض نفسها ، وكل ما يعوق ماتيو عن اتمام محاولته ، هو إيجاد النقود اللازمة لعملية الإجهاض .
ولكنه فى محاولته هذه ، يصطدم بأمه ، وأصدقائه ، والبنوك ويلجأ فى النهاية إلى أخيه – المحامى الناجح – الذى يلقنه درساً طويلاً دون أن يعطيه شيئاً وفى النهاية يحصل ماتيو على النقود اللازمة من مغنية بأحد الملاهى ، ولكن مارسيل الآن ترفض فكرة الإجهاض ، ويتقدم للزواج منها تلميذ آخر من تلاميذ ماتيو ، هو دانييل .
ويعطى إسمه للمولود .
ودانييل يحيى حياة أشد زيفاً من أستاذه ، فهو شاذ جنسياً ، وهذا الشذوذ يجعله يكره نفسه والآخرين ويفكر فى الانتحار . ولكنه فى النهاية يتجه إلى الغلو فى الدين.
وعندما تسقط فرنسا تحت أقدام النازية، تجىء فرحته الكبرى إذ يجد الفرنسيين الذين يبغضهم ويكرههم في حزن وعار وأسى .
أما فى الجزء الثانى "وقف التنفيذ" فتدور أحداثه فى عام ١٩٣٩ ، وسط جو من القلق والذعر الذى أصاب أوربا من احتمالات قيام الحرب،وأشخاصها هم نفس أشخاص الجزء الأول . فماتيو لايزال يبحث عن حريته ، ويفكر فى الإنضمام للمقاتلين فى أسبانيا ، ولكنه يستدعى للخدمة العسكرية ويجد فى الجيش تجربة أخرى جديدة لم يعهدها من قبل .
أما دانييل – الذى تزوج من مارسيل – يجد تحرره المؤقت فى الإتجاه إلى الدين .
وتدور أحداث الجزء الثالث " الموت فى النفس" والذى ترجم إلى الإنجليزية بإسم "الجديد فى الروح" خلال اجتياح الجيوش الألمانية لفرنسا فى عام ١٩٤٠ والجيش الفرنسي قد انكسر وضباطه يفرون بأنفسهم . وجنوده قد ظهرت بينهم الفوضى وروح اللامبالاة ثم توقع الهدنة، وتقام الاحتفالات فى القصور وبين النساء ، مع الطعام والشراب . =

وهذا الكتاب بأجزائه الثلاثة ، والذى هو دعوة صريحة إلى الحرية بكافة معانيها ، يشبه إلى حد كبير كتاب رسل : سبل الحرية Roads to Freedom ، والذى هو أيضاً نقد لكافة الأنظمة التى تقف فى سبيل الحرية ، ثم الوقوف عند المجتمع الأمثل ، والعالم كما يمكن أن نجعله أفضل .

وإذا كان كلا من سارتر ، رسل يدعوان فى كتابيهما إلى الحرية فإن كل منهما قد سلك مسلكاً مختلفاً ، فالأول قد استخدم أسلوب الرواية المسرحية لأن المسرح يخاطب جمهوره عن طريق "الفعل" و "الكلمة " المنطوقة ، ولهذا عندما تمسك سارتر بالالتزم وانغمس فى

= ويقع ماتيو فى أسر القوات الألمانية ويحس بالمهانة والقذارة والجوع . ولكنه يأخذ فى الشعور بروح التضامن مع الأسرى الآخرين . ويحس أنه ليس بأفضل منهم . وأنه ليس له الحق فى احتقارهم ، وأنهم جميعاً ينتظرون إشارة واحدة أو كلمة واحدة .

«كان الجميع ينظرون ببعضهم إلى بعض ، ويبدو عليهم أنهم كانوا ينتظرون شيئاً يقال ، ولكن لم يعد هنا ما يستحق القول .

وفجأة ابتسم لونجان لماتيو ، وابتسم شارل وولاتكس وأضاء القمر هذه الابتسامات على شفاههم ، كأنها زهرات باهته .

ويكتشف ماتيو أن قيمة الحرية تكمن فى كيفية استخدامها ، وأنها تتطلب التزاماً ومسئولية وإقداماً علي فعل محدد فى موقف معين . وأن علي المرء أن يدرك الواقع الملموس ، وأن يعمل وأن يدفع الثمن .

... هذا هو جوهر الرواية التى صاغها سارتر بأسلوب أدبى بليغ لتعبر تعبيراً واضحاً عن قيمة الحرية وارتباط هذه الحرية بالمسئولية والزمان وروح العصر ، والتى تدفع الانسان دائماً إلى العمل وإلى إثبات أن الإنسان قادر على عمل شيء ما إذا أراد ذلك .

السياسة والدعوة إلى الحرية العملية اتجه إلى المسرح لأنه أصلح فى التعبير عن الأفكار السياسية .

ولكن فى النهاية . الإنسان حر .

* * *

موقف رسل من الفكر الماركسى (الشيوعى) ، والفكر الرأسمالى :

المذهب الماركسى هو بلا شك أقوى المذاهب السياسية والاجتماعية التى سادت العالم فى القرن الأخير ، أعنى الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين .

لذلك يستحيل على أى مفكر سياسى أو اجتماعى أن يتجاهله ، مهما كان موقفه منه - مؤيداً أو معارضاً أو معدلاً .

فما موقف رسل من هذا الاتجاه ؟

إذا كان رسل مدافعاً عن حرية الفرد ضد أى عدوان ، أيا كان مصدره ، ومهما تكن غايته ، إذا كان الأمر كذلك ، فهو مناهض للماركسية بكل قوته لأنها تنتمى إلى الاعتداء على حرية الأفراد ، وطمسهم فى لُجة المجموع ، وهى كذلك تمجد العامل بيديه على حساب المشتغل بعقله وفكره ، وفضلاً عن ذلك فهى تتخذ من حرب الطبقات، ومن الكراهية بين أفراد المجتمع حافزاً للتقدم ، مع أنه محال على الإنسان أن يتقدم على أساس من الحسد والحقد ، وليس هنالك الكيمياء التى يمكن بها أن نستخرج من الكراهية وفاقاً بين الناس واتساقاً.[١٥]

عـرض رسل فى كـتـابه " سـبل الحـرية " لثـلاثة أنظمـة هى : الاشتراكية، والفوضوية ، والنقابية * يبين مـلامح كل منهـا ، عيـوبهـا ومزاياها ، ثم يقترح نظاماً وسطاً بينها جميعاً ، للوقوف على النموذج الأمثل للمجتمع .

يقول رسل فى مقدمه هذا الكتاب :

يبدو لى أن اشـتراكية الطوائف المهنية نظام يدعـو إلى الاعـجاب ، وأود لو أن الدعـوة إليـهـا عـادت إلى الحـيـاة ... "إلا أن هناك نواحى أخرى لم أعد أتفق فيـهـا مع مـا ذهبت إليه من ثلاثين عامـاً ، ولو كنت أكتب الآن لكنت أقل تأييداً للفوضوية .

إلا أن مـشكلة المحـافظة على أكـبـر قـدر ممكن من الحـرية فى ظل الاشتراكية صارت الآن أكثر إلحاحاً مما كانت عليه وقتئذ .

١- النظام الاشتراكى:

يرى رسل أن الاشتراكية تمثل الإتجاه الداعى إلى الملكية العامة أو الجماعية للأرض ولرأس المال .

ويمكن القول بصفة عامة أن الفلسفة الماركسية تمثل الإطار النظرى لكثير من التجارب الاشتراكية المعاصرة ، بل إنها تكاد تكون هى الإطار النظرى الوحيد لما عاصره رسل من تجارب تطبيقية .

* Socialism, Anarchism, Syndicalist.

والديمقراطية – فى إطار هذا الاتجاه – تهدف إلى الغاء كل أنواع الامتيازات ، وعدم المساواه المصطنعة ، كما تدافع عن الأجراء فى المجتمع (١٦)

ويمكن القول بأن الاشتراكية كقوة بدأت فى أوربا بماركس* ، ولكنها كانت موجودة فى كل من إنجلترا و فرنسا من قبل .

ويعود الفضل إلى ماركس – بمعاونة إنجلز – فى وضع مذهب اشتراكى متماسك ، مذهب عملى بدرجة تكفى للسيطرة على عقول جماهير كبيرة من الناس .

وقد عرض رسل لموقفه من الماركسية فى الكثير من مؤلفاته ، وخاصة كتابه : سبل الحرية، الحرية والتنظيم .

نقد رسل للماركسية والمبادئ التى تقوم عليها:

يمكن حصر أهم مبادئ الماركسية كما وردت فى "البيان الشيوعى" فيمايأتى :

* ولد ماركس فى عام ١٨١٨ فى تريفيس فى مقاطعات الرين ، هو يهودى تظاهر باعتناقه المسيحية، درس التشريع والفلسفة والاقتصاد السياسى والتاريخ فى عدة جامعات ألمانية، تأثر فى الفلسفة بمبادئ هيجل ، وقد سيطرت عليه هذه المبادئ طوال حياته ، ورأى مثل هيجل أن التاريخ تطور لفكرة .

فى عام ١٨٤٥ نفى ماركس من باريس ، وذهب مع إنجلز ليعيش فى بروكسيل ، وهناك وضع منشور للرابطة " اتحاد العمال الألمان " و ظهر المنشور عام ١٨٤٨ " بالبيان الشيوعى " الذى ظهر فيه لأول مرة النظام الماركسى، توفى عام ١٨٨٣ فى إنجلترا . قضى معظم وقته فى تأليف كتابه الرئيسى " رأس المال"(١٧)

(أ) التفسير المادى للتاريخ . (ب) قانون تركيز رأس المال .

(جـ) صراع أو حرب الطبقات * .

---

* (أ) التفسير المادى للتاريخ :

يرى ماركس أن ظواهر المجتمع البشرى الأساسية يرجع أصلها إلى اعتبارات مادية ، وهو يذهب إلى أن هذه الاعتبارات تتضمنها نظم إقتصادية . فهو يعتبر الدساتير السياسية والقوانين والأديان والمذاهب الفلسفية كلها فى إطارها الواسع مظاهر للنظام الاقتصادي فى المجتمع الذى تقوم فيه .

ويطبق ماركس مذهبه بخاصة على ثورتين : إحداهما حدثت فى الماضى والأخرى ستقع فى المستقبل . الأولى هى ثورة البرجوازية ضد الإقطاع ، والثانية هى ثورة الأجراء أو الطبقة العاملة . (البروليتاريا) ضدالبرجوازية . وهو يعتبر حركة التاريخ كلها حتمية نتيجة للأسباب المادية التى تؤثر فى الإنسان .

ولم يكن ماركس يدعو للثورة الاشتراكية قدر ما كان يتنبأ بوقوعها .

(ب) قانون تركيز رأس المال :

تنبأ ماركس بأن بعض المشروعات ذات المركز الأضعف نسبياً سوف تنوب أمام منافسة المشروعات الأقوى، نتيجة لهذا هى تناقص عدد المشروعات مع زيادة حجمها، وتزايد أعداد البروليتاريا ، إذ أن أصحاب المشروعات الصغيرة التى لم تتمكن من الصمود سوف يتحولون إلى أجراء ، وبالتالى فسوف يندرجون فى عداد البروليتاريا .

طبق ماركس هذا النظام على الزراعة أيضاً ، توقع أن يرى أصحاب الأراضى يقلون بالتدريج ، بينما تتسع رقعة ما يمتلكه كل منهم ، وهذه العملية من شأنها أن تجعل مساوئ النظام الرأسمالى ومظالمه تزداد بشاعة ووضوحاً .

(جـ) صراع الطبقات :

يشير ماركس إلى أن المشروعات الرأسمالية تميل إلى التضخم شيئاً فشيئاً ، كما أن الرأسماليين والعمال الأجراء يمثلون طرفى تناقض حاد . فالعمال واقعون تحت سيطرة واستغلال الرأسماليين ، ومع بروز مساوئ هذا الاستقلال وتعاظمه ، يبرز =

هذه الأفكار التى تضمنها البيان الشيوعى ، ذكرت بإسهاب أكثر فى "رأس المال" . ويذكر البيان أن صراع الطبقات ليس شيئاً جديداً .

إن تاريخ كل المجتمعات التى قامت حتى الآن هو تاريخ الصراع بين الطبقات ، صراع بين الطبقة المالكة أو أصحاب رؤوس الأموال ، الطبقة المعدمة التى لا تملك شيئاً .

تقييم :

إذا كان رسل قد وجه الكثير من المآخذ إلى النظام الماركسى إلا أنه لا يخفى إعجابه "بالبيان" حيث يصفه بأنه عمل قوى وباهر، يوجز فى عباراته المختصرة تحليلاً لأهم القوى التي تحكم العالم ، كما يصور ملحمة النضال - نضال الطبقات الكادحة وحصادها .

الواقع أن آراء ماركس بشكل عام - رغم تعمقها - قد وقعت فى الكثير من المزالق والأخطاء .

وهنا يتساءل رسل :

- هل قوانين التطور التاريخى التى وصفها صحيحة ؟
- هل الاشتراكية أمر مرغوب فيه ؟

= بالتالى نضال البروليتاريا ضد الرأسماليين ، ويتعاظم هذا النضال الذى سوف يؤدى إلى الإطاحة بالنظام الرأسمالى . وحينئذ سينتفى الاستغلال وتنتفى الطبقات ويصبح جميع الناس أحراراً .

ماركس يدعى أنه أثبت أن الاشتراكية لابد آتيه ، ولكنه لا يكاد يشغل نفسه بمناقشة مدى صلاحيتها عندما تتحقق .

فى الواقع ، أثبت الزمن أن نظريات ماركس بها العديد من المآخذ ، حقاً لقد ثبت صدق بعض نبوءاته ، لكن معظمها قد خابت أمام محك التاريخ الواقعى. وقد كانت هذه الخيبة منطقية - فى رأى رسل - نتيجة لما اتسمت به بعض آراء ماركس من الجدة والعنف والتعسف . وعلى سبيل المثال تصور ماركس المجتمع منقسماً إلى طبقتين متميزتين تمام التمايز ، وهو تصور بالغ التعسف .

فالخط الفاصل بين الرأسمالى والبروليتارى ليس بهذا القدر من الحدة ، فهناك تدرج بين الفقر والغنى ، أى توجد طبقات متوسطة بين الأغنياء الرأسماليون والفقراء .

كذلك فتطور العالم إلى الآن لم يكن مشابهاً لما قاله بدرجة تكفى لأن نجعل التاريخ السياسى أو الاقتصادى مطابقاً تماماً لما تنبأ به . فالقومية زادت حدتها بدلاً من أن تختفى ، كذلك أثبت الواقع أن القانون الحديدى للأجور ونظرية فائض القيمة - التى عرضها فى كتابه "رأس المال" هى نظرية وهمية إلى حد كبير ، كما تنطوى على أخطاء فى تفصيلاتها أهمها أن القيمة التى يعنى بها الاقتصاديون هي قيمة التبادل ، وهذا أمر لا يتوقف على كمية العمل المبذول فحسب ، وإنما يتوقف على عوامل عديدة هى التى تفسر تغيرات الأسعار .

هذا ويعرض " برنشتاين " فى كتابه "الاشتراكية المتطورة " لمساوئ النظام الماركسى ، كذلك كتيب "سورل " إنحلال الماركسية .

الفوضوية* ونقد الماركسية :

الفوضوية كنظام سياسى هدفها الأول نقد الماركسية فإذا كانت الاشتراكية تؤمن أن الفرد سيصبح حراً إذا أصبحت الدولة هى المالك الوحيد لرأس المال ، فإن الفوضوية – على النقيض من ذلك – تحاول أن تجد وسيلة للتوفيق بين الملكية الجماعية والحد أو الإقلال إلى أقصى حد من سلطان الدولة أو إلغائها تماماً ، فذلك هو هدفها النهائى (١٩).

هذا ويمكن إعتبار باكونين مؤسساً للفوضوية الشيوعية بنفس المفهوم الذى يمكن إعتبار ماركس مؤسساً للاشتراكية الحديثة .

يقول باكونين فى خطاب يوضح فيه إحتقاره للماركسية :

« إن الألمان ، الصناع ، ماركس وانجلز ، يصنعون ما تعودوه من شر ، من غرور وإشاعات وغطرسة نظرية.. يتحدثون عن الحياة والعمل

---

* الفوضوية – كما يدل اشتقاقها – هى النظرية التى تعارض الحكم الجبرى أيا كان نوعه، فهى تعارض الدولة باعتبارها متضمنة القوة التى تستخدم فى حكم المجتمع ، ونوع الحكم الذى تستطيع الفوضوية أن تتقبله يجب أن يكون حكماً حراً، أى يوافق عليه الجميع.

إن الحرية – فى اعتقاد الفوضوى – هى الخير الأمثل والسبيل اليها هو الغاء القيود الجبرية التى يقيد بها المجتمع الفرد(١٨).

والبساطة ، وليس هناك حياة ولا عمل ولا بساطة ... صناع أنباء وسفوسطائيون يتدللون بصورة تشمئز منها النفس ، لقد أصبحت كلمة برجوازى صفة تتردد بطريقة منفرة ، ولكنهم جميعاً وبلا إستثناء برجوازيين . باختصار كذب وغباء ومحال ، أن يستطيع المرء أن يتنفس بحرية فى مثل هذا المجتمع.(٢٠)

وإذا كان مفهوم الحرية عند رسل يعارض تماماً - كما سبق أن أوضحنا الإتجاه الماركسى - فإنه أيضاً لايحبذ الفوضوية البحتة .

يقول رسل فى مقدمة الطبقة الثانية لكتابه سبل الحرية :

« ورأي الشخصى هو أن الفوضوية البحتة ، رغم أنه ينبغى أن يكون الهدف النهائى الذى يجب على المجتمع أن يعمل على الاقتراب منه دائماً ، مستحيلة فى الوقت الحاضر ، وهى إذا تحققت لن تعيش سنة أو سنتين على الأكثر - ويبدو لى أن الاشتراكية الماركسية والنقابية ، على مابهما من أوجه نقص - قد اعدت لاتاحة قيام عالم اسعد حالاً وأفضل من ذلك الذى نعيش فيه ، ومع ذلك فلست أرى أنهما خير النظم العلمية، إذ أخشى أن الاشتراكية الماركسية تعطى الدولة قوة أكثر مما ينبغى ، بينما اعتقد أن النقابية، وهى تهدف إلى إلغاء الدولة ، تجد نفسها مضطرة إلى إنشاء سلطة مركزية تضع حداً للمناقشات بين جماعات المنتخبين المختلفة .

إن أفضل نظام عملى فى رأى هو إشتراكية الطوائف المهنية التى تتضمن ما هو سليم وصحيح فى كل من المبادئ التى تدعو إليها اشتراكية الدولة ، كما تتضمن النواحى السليمة التى يتضمنها خوف النقابيين من الدولة ، إذ أنها تبنى نظاماً للإتحاد بين المهن يقوم على أسس مماثلة لتلك التى تدعو إلى الاتحاد بين الشعوب الفيدرالية Sys- tem of federalism .

خلاصة النموذج العملى الأمثل كما يتصور رسل هو مزيج من كل هذه الاتجاهات يحاول فيه أن ينتقى منها خير ما فيها ، فهو ينتقى من الرأسمالية حرصها على الإرادة الفردية وحرية الخلق والإبداع ، والحافز الفردى ، وينتقى من الاشتراكية تلافيها للاستغلال الذى يترتب على الملكية الخاصة المطلقة ، كما ينتقى من الفوضوية رفضها مؤسسات القهر الذى يمارس أحياناً بإسم القانون نحو أقليات أو أفراد .

والنظام الذى يتحقق فيه هذا كله هو مايمكن أن نسميه " الفيدرالية الاقتصادية المتدرجة" .

وفى ظل هذا النظام تتدرج الاختصاصات وقدر المبادأت المسموح بها صعوداً من الوحدة الانتاجية المباشرة حتى السلطة الاقتصادية العليا .

وينبغى أن يكون لكل فرد داخل الوحدة الانتاجية أكبر قدر ممكن من الاستقلال فى مواجهة الوحدة الانتاجية ذاتها .

والواقع أن هذا النموذج التوفيقى الذى يقترحه رسل ، والذى يتصور إمكان تحقيقه عملياً إنما يمثل إطارا عاماً شديد العمومية ممايجعل منه مجرد نموذج نظرى .

وعلى سبيل المثال لم يقدم لنا رسل قائمة محددة بمدى اختصاصات كل مستوى من مستويات الهرم الفيدرالى الذى يقترحه ، ولا قدم الوسيلة التى يمكن من خلالها ضمان عدم تجاوز أى مستوى من المستويات لاختصاصاته .

وأهم من هذا كله أنه لم يقدم لنا الأسلوب العملى للوصول إلى مثل هذا النموذج، وهل يمكن لمثل هذا النظام أن يولد داخل النظام الرأسمالى أم يمكن أن يتمخض عن النظام الاشتراكى باعتباره تطويراً له ؟

– موقف رسل من فلسفة القوة أو التطور

أدت التطبيقات العلمية الواسعة التى شهدها القرنان التاسع عشر ، والعشرون إلى زيادة قدرة الإنسان وسيطرته على الطبيعة سيطرة هائلة .

ولقد أخذت بعض الفلسفات المعاصرة تنظر إلى العلم لا من حيث هو وسيلة لمعرفة العالم بل من حيث هو أداة لتغييره ، وهذا بدا واضحاً فى الفلسفات القائمة على القوة ، كفلسفة التطور التى رأت أن تقدم الجنس البشرى هو هدف الانتخاب الطبيعى ، ومن العدل اذن – فى ظل هذه النظرية – أن يقضى على الضعفاء وعلى ذوى الخصائص الأدنى من الناحية البيولوجية ، والدعوة إلى الحرب باعتبارها قانوناً طبيعياً يحكم الجميع (٢١) .

ويرى رسل أن من أخطر الآثار السياسية التى تترتب على إعتناق فلسفة من هذا القبيل أنها تجعل إمكان الحل السلمى لأسباب النزاع أمراً مستحيلاً ، وباعتبار أن رسل يمقت الحرب ويدعو إلى إيثار الحل السلمى ، فهو يناهض مثل هذه الفلسفات القائمة على قانون القوة والبقاء للأقوى .

هذه الآراء التى تمثل الفكر الفاشى الحديث .

ذلك أنه إذا كان قد رفض الشيوعية الماركسية نظاماً سياسياً واجتماعياً ، فبديهى أنه يرفض كذلك النظم الفاشية على اختلافها فالنظم الفاشية مرفوضة غاية ووسيلة ، لأنها رأسمالية وهى قائمة على إشعال الروح القومية ، وفوق ذلك فهى تفرق بين الناس أجناساً وطبقات على أساس أنهم غير متكافيئين بيولوجياً . فالجنس الآرى ممتاز عندها بالقياس إلى غيره ، والصفوة ممتازة بالقياس إلى عامة

البشر وسوادهم إلى آخر هذه الآراء التى تدعو إلى التميز والتعصب والتنافس واشعال الحرب بين البشر، وهذا كله ما يرفضه رسل .

« إن أبشع اعداء الحرية ، سواء فى الداخل أو الخارج ، هى الحرب» .

* * *

الهوامش

* راجع هنا : رفض رسل للفلسفات المثالية ، بالاشتراك مع مور ، ألكسندر ، مؤلفى كتاب " النيوريالیزم" أو الواقعية الجديدة . من كتابنا: صمويل الكسندر رائد الواقعية الجديدة ، الفصل الثانى ص ٢٥ وما بعدها .

(1) Robert E. Egner and lestar E. Domonn : The Basic writing of B. Russell. part xi philosophy and politics .p. 454 : 467.

(٢) د. زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية ط٢ ، مكتبة مصر ١٩٦٢ ، ص ٢٣٣، ٢٣٤ .

(٣) سامية عبد الرحمن : المرأة فى فكر جون ستيورت مل ، جـ٢ : الحرية ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٤) جون ماكورى : الوجودية ، ترجمة د. إمام عبدالفتاح ، مراجعة د. فؤاد زكريا دار الثقافة ، القاهرة ١٩٦٦ ، مقدمة ص ١٣ ، الفصل الحادى عشر ، ص ٢٩٨ : ٣٠٢ .

(٥) كيركجورد : رائد الوجودية ، ط١. د. إمام عبدالفتاح ، دار الثقافة ، ١٩٨٦ . مقدمة ص ٩ ، الفصل السادس ، ص ١٩٥ : ٢٣٧ .

(٦) هيدجر : جرين مارجورى : ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤.

- هيدجر : نداء الحقيقة ، ترجمة عبدالغفار مكاوى القاهرة ١٩٧٧ (نقلا عن هيدجر : راعى الوجود ، عبدالمنعم مجاهد) .

(٧) د. عبدالرحمن بدوى : دراسات فى الفلسفة الوجودية ، فلسفة سارتر ١٧١ - ٢٠١ .

(٨) الفكر المعاصر : العدد الخامس والعشرون ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، مارس ١٩٦٧، ص ١٣٦ .

(٩) جان بول سارتر دروب الحرية : سن الرشد ، ترجمة : سهيل إدريس، ص ٢١٣.

(١٠) جان بول سارتر الأيدى القذرة ص١٦٢ .

(١١) جان بول سارتر : الوجود والعدم ، مقال فى الانطولوجيا الظاهرياتية، ترجمة عبدالرحمن بدوى ، ص ٦١ و، ص ٦٧٧ .

(١٢) سارتر ضمير عصره ، كرانستون ، دانتو ، دار مطابع المستقبل ، (بدون تاريخ) ص ٣١ : ٤٩ .

(13) J. P. sartar : " Le mur " . Gallimard, paris 1954, p. 81 .

(حبيب الشارونى : ازمة الحرية بين برجسون وسارتر ، دار المعارف ، ١٩٦٣ ، ص ١٢٥ : ١٣٢ .

(١٤) جان بول سارتر : سن الرشد ، ص ١١٤ .

(15) Bertrand Russell : Roods to Freedom. 1490, Marx and Socialist doctrine p 25 : 43.

(16) -------------: Ibid. introduction p. 15 - 21 .

(17) ------------- : Ibid , p. 28.

(18) Russell,. B. : Roods to Freedom, ch. II. p. 45.

(19) Russell B. : Roads to Freedom ch. II Bakunin and Anarchism p. 44 : 58,

--------------, Education and social order. ch. vi. p. 76 : 86, ch. xiii : Education under commumism. p. 177 - 211 .

(20) ------------, Roads to Freedom p. 58.

(٢١) راجع هنا : رسالتنا الماجستير، هربرت سبنسر وفلسفة التطور ١٩٨٣، كتابنا : القيم الأخلاقية : الفصل الخامس : فلسفة القوة عند نيتشه ص ١٢١ : ١٢٩ .

الحريـــة الفرديـــة

(١) التربية وحرية الفرد :

يرى رسل أن الحرية هى أعظم الفضائل ، الحرية مثل الفن الخالق، والحب ، والفكر . ومن الضرورى فى كل محـاولة لإعـادة بناء النظام السياسى والاجتماعى أن نتبين أولاً ، الاحتياجات الحيوية للأفراد .

« إن البشر ليسوا فى حاجة فقط إلى عروض مادية ، ولكنهم بحاجة أيضـاً إلى قـدر أعظم من الحرية ، ومن حق الفـرد توجيـه نفسـه إلى مجال أوسع لملكاته الإنشائية ، وإلى فرص أكبر للتمتع ببهجة الحياة .

وإذا كانت حرية الفرد هى المحور الأساسى عند رسل فلابد أن نبدأ بالتربية لنرى إلى أى مدى يمكن أن تؤدى إلى تشكيل وبناء شخصية الفرد أو تحبط هذه الشخصية إذا لم تحقق أهدافها .

والحديث عن التربية كضرورة حياتية مهم للغاية ، ولكن ما أصعب التطبيق العملى.

يؤكد لنا الفيلسوف الأمريكى جون ديوى أن التربية عملية اجتماعية الهدف منها تنمية أفراد المجتمع من أجل تقدمه واستمراره . « فعن طريق تربية صغاره يحقق المجتمع استمراره[١] » .

اهتم رسل – فى مرحلة مبكرة من حياته – بالتربية * لما رآه من أن إسلوب التربية يؤدى إلى تشكيل النشىء فى قوالب ، وضيـاع الحرية والاستقلال الفردى .

* عرض رسل لهذا الموضوع – نظراً لأهميته فى فلسفته – فى عدة مؤلفات منها :
Education and Social order, principles of social Reconstruction,
=

يرى رسل أنه " لا تستقيم نظرية سياسية ما لم يشمل مجال تطبيقها الأطفال – كما يشمل الرجال والنساء .

ولكن معظم واضعى النظريات التربوية لا أطفال لهم ، ومن ثم فهم يكتبون دون أن يضعوا فى إعتبارهم مصالح النشيء . فالتربية مؤسسة تربوية – تهدف إلى الإصلاح الفكرى والاجتماعى – لم تأخذ الاهتمام الكاف من كاتبى التربية ، ولا يمكن لها أن تثمر إلا إذا احترمنا حقوق النشيء أولاً ، هذا الاحترام الذى يجعل الطفل قيمة فى ذاته ، ولكن التربية بوضعها الحالى تعمل لإبقاء الحالة القائمة على ما هى عليه ، وتقدم معارف نمطية تجعل النشيء على شاكلة واحدة .

لو أن للأطفال اعتباراً لذاتهم ، لكان هدف التربية اعدادهم لأن يختاروا عن تبصر ما يفضلون من أنظمة، لا محاولة ضمهم إلى هذا الجانب أو ذاك ، والعمل على تنمية ملكة التفكير عندهم ، لا على جعلهم يفكرون على غرار الآخرين .

« لو كنا حقاً نحترم حقوق النشيء لوجب علينا أن نمنحهم تعليماً يزودهم بالمعرفة والعادات العقلية اللازمة لتكوين رأى مستقل(٢) .

=

scptical Essays,
Function of a teacher,
aims of Education,
Reconciliation of individuality and citizenchip.

إننا بحاجة ماسة فى عصرنا الحالى - عصر العلم والتكنيك - إلى تنمية تربيتنا الخلاقة ، حيث أن الإنسان فى أكثر أعماله وأفكاره ليس ابن غرائزه ، بل صنع تربيته . ولكن كيف يتسنى له ذلك ، ونحن بتربيتنا له نشرع بقتل كل مميزاته ، وهو طفل فى المنزل أولاً ، ثم فى المدرسة ، وحتى إذا خاض الاجتماع وبه بقية باقية ، تكفلت كتبنا الدينية والأدبية (الخيالية والخرافية) ، ونظمنا الاجتماعية بالاجهاز عليه ، فيزول الإنسان الطبيعى بالكلية ، ولا يبقى إلا الإنسان المصنوع على خلاف الطبيعة .

إن التربية مطلوبة فى رأى جميع الدول المتحضرة الحديثة ، ولكن يجب أن نقرر بداية ما الأهداف التى ينبغى تحقيقها من عملية التربية؟[٣] .

التربية السلبية :

يؤكد رسل أن النظرية السلبية فى التربية هى التى تعتمد على الضغط والخضوع والطاعة العمياء ، وبالتالى تفتقد الحرية . يقول رسل:

« إلى حد قريب كانت الأساليب الخاصة بتربية النشيء وتدريبه فى الطريق الذى يسلكه ، كانت صارمة وجاهزة ، وهى فى الواقع لاتختلف عن الأساليب المستخدمة لتدريب الخيول ، ما كان يفعله الكرباج

للحصان، كانت تفعله العصا للطفل ، وأدى هذا النظام إلى مزيد من القسوة التى لم تأخذ أى اعتبار لحاجات البشر . فقدان الحرية بصفة مستمرة يؤدى إلى مزيد من الكراهية والحقد والخضوع الذى يؤدى بالتالى إلى اضطراب الشخصية وتدمير الأصالة والذكاء والرغبة للمعرفة(٤) .

وقد تضافرت جهود الدولة والكنيسة والأسرة لتدعيم هذا النوع السلبى من التربية، وذلك دون مراعاة لمصلحة الطفل أو ماذا يرغب .

ففيما يتعلق بالدولة :

اهتمامها بالتربية حديث جدا – فيما يرى رسل – حيث أنه لم يكن موجوداً فى العصور القديمة أو العصور الوسطى ، وحتى بداية عصر النهضة الأوربية (ق ١٤ ، ١٦) ، وكان التعليم أو التربية قاصراً على الكنيسة فحسب .

وفى عصر النهضة أنشئت المؤسسات مثل "كلية فرنسا" ، وكان التعليم – من قبل الدولة – الزامى شامل ، لأنها ترى أن الجهل عار فى بلد متقدم ، كما أن الديمقراطية مستحيلة بدون تعليم ، وقد أدى هذا إلى الحد من سلطان الكنيسة.

ولكن التعليم من قبل الدولة لم يكن لخلق الفرد الحر ، القادر على الإبداع بقدر ما هو تحيز معين لما يريده الزعماء ، ومن ثم يتعلم

النشيء احترام وجود المؤسسة ، وتجنب كل نقد جوهرى ، وهذا من شأنه خسارة تلحق بالفرد نتيجة إجهاده المفرط من قبل السلطة .

أما الكنيسة ، فهى أشد خطراً من الدولة - فيما يتعلق بالتربية - لأنها تفضل أن يكون عامة البشر جهلاء على الإطلاق ، وذلك حتى تستطيع أن تغرس الاعتقاد الملائم من وجهة نظرها - وبالتالى تبدد البحث الحر .

فالدولة والكنيسة كلاهما معاد للفكر، لأنهما يمارسا تعليماً خال من الإثارة والتفتح والنشاط العقلى .

المعلم : أما عن المعلم ، فنادراً ما يسمح بوجهة نظره الخاصة ، فهو يعين من قبل الدولة ، كما أنه يعفى من الخدمة إذ أخل بالنظام الدولى ، كما أن في تصور المعلم - كالحاكم - أن واجبه العقاب أكثر من الحب.

أما عن دور الأسرة : ممثلة فى الوالد - رب الأسـرة ، فنجـد أن دوره يختلف تبعاً للحالة الاقتصادية ، فدخل الأجير يختلف عن دخل المهنى ، هذا الاختلاف يؤدى إلى اختلاف البواعث ، الأجير يبعث بأطفاله إلى المدرسة من أجل التخلص من الإزعاج فى المنزل ، أما المهنى ، فله وجهة نظر مختلفة ، حيث أن دخله يمكنه من أن يعلم أطفاله حتى يصبحوا أفضل من الآخرين . الهدف هنا ليس هو التعليم بقدر ما هو التنافس من أجل التميز عن الآخرين .

والخلاصة أن التربية المؤسساتية تنطوى على تحقيق مصلحة هذه المؤسسة سواء أكانت دولة أو كنيسة أو أسرة ، والتضحية وعدم العناية بالنشيء بالدرجة الكافية .

الدولة تريد الطفل أن يخدم من أجل التوسع القومى وتأييد الشكل الحكومى ، الكنيسة تريده من أجل زيادة قوة جماعة الكهنة ، المعلم غالباً ما ينظر إلى مدرسته كمؤسسة أو دولة صغيرة ، ويريد الطفل أن يمجد المدرسة ، الآباء تريد الطفل أن يمجد الأسرة ، أين الطفل - كفاية فى ذاته - من كل هذا ؟؟

أين هو ككائن بشرى مستقل له حق السعادة والرفاهية ؟ فى النهاية النشيء فريسة سهلة للإهتمامات الشريرة (٥) .

من هذا يتبين لنا أن إشراف الدولة والكنيسة والمؤسسات الكبرى التابعة لهما على التعليم - فيما يرى رسل - أمر لا يتفق وروح الإحترام .

إن أوضاع التربية الحالية لا يهمها النشيء فى ذاته ، ولكنها تعمل على صيانة الأوضاع القائمة وحمايتها .

ويكاد يكون الدافع إلى التربية كله سياسياً . فهو يهدف إلى دعم جماعة ما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وهذا الدافع هو العنصر الأساسى فى تحديد المواد التى تدرس ، والمعلومات التى تقدم للتلاميذ.

ولا تكاد النظم التعليمية تتضمن شيئاً يزيد نمو العقل والروح فى ذاتهما نمواً حقيقياً.(٦)

فالنظام الاجتماعى كثيراً ما يكون فى حقيقته مؤامرة كبرى على حرية الأفراد . فلا يكاد يولد الطفل وينشأ حتى ينصهر - بواسطة مواطنوه - فى ثقافة المجتمع الذى جاء فيه ، ومازالوا يلقنونه . ماذا يسلك ، وماذا يعتقد ، بغض النظر عن سلامة هذا السلوك أو تلك العقائد . فليس المهم عندهم أن تكون العقيدة سليمة أو أن يكون السلوك صواباً ، بل المهم هو أن تكون هذه هى عقائد سائر أفراد المجتمع .

إذن محتم على الناشىء الجديد أن ينصب مع غيره فى قالب واحد ، وإلا فهو الشاذ الذى يستحق أن يوضع موضع السخرية ، ويكون الطفل فى أعين الناس جديراً بالإعجاب والثناء حين يكون مطيعاً يؤدى ما يؤمر بأدائه ، ولا يبيح لنفسه أن يناقش الكبار فى صواب ما يأمرونه بفعله .

وبهذا تصبح التربية قائمة على أساس التجانس بين هذ الناشئ ، وبين بقية أفراد المجتمع . هناك نمط معين ، وعمل التربية هو أن تصوغ الناشئين على غرار ذلك النمط القائم .(٧)

الحشد فى التربية(*) :

هذا النمط السلبى للتربية أدى إلى رفض رسل لما يسمى "بالحشد أو الجمهور Herd"، حيث يرى أن الجمع الأصغر (المدرسة) أو الأكبر

---

* رفض رسل لتأثير الحشد على الحرية الفردية يشبه إلى حد كبير ما جاء به الفكر الوجودى – عند أقطابه : كيركجورد ، هيدجر ، سارتر – حول هذا المعنى : أوضح كيركجورد رفضه لمفهوم "الحشد " أو " الجمهور " فيقول :

«إن الحشد فى مفهومه ذاته هو الباطل . un truth وذلك لأنه يحيل الفرد تماماً إلى شخص غير مسئول ، أو على أقل تقدير يضعف إحساسه بالمسئولية بأن يحيله إلى مجرد كسر (أو جزء ضئيل من كل ...) وقد أدى هذا إلى تزييف الذات وطمس معالم الشخصية »(٨)

ويتكرر هذا المصطلح عند هيدجر ولكن بوصف آخر " هم They " والتى يعنى بها عامة البشر بغير تحديد " وهم" يستبعد الاختيار ويزيل المسئولية عن الفرد ، ويسطح كل شىء ويهبط به إلى مستوى الوسطية . "كل شخص هو الآخر ، ولا أحد يكون هو نفسه ". (٩)

أما سارتر فقد ناهض الحشد بكل قوته ، إنطلاقاً من تأكيده للحرية، ونراه يصف هؤلاء الذين لايتحملون نتيجة إختياراتهم وحريتهم – فى مسرحيته الأيدى القذرة – بأوصاف عديدة اللئام ، الأوغاد ، المنافقون وهم جميعاً يضربون على قالب واحد، بعيد تماماً عن التفرد والتميز والإبداع . (١٠)

الخلاصة أن الوجود الزائف مع الآخرين هو ذلك الوجود الذى يفرض على الناس التجانس uniformity ، بحيث يطمس أى نوع من الامتياز بينهم . ما يسمى بالحشد أو الجمهور أو القطيع – على حد تعبير نيتشه – "أو الـ هم they ، وما إلى ذلك ، يمثل الضغط على سبيل التجانس ، وهو أمر زاد زيادة هائلة فى العصور الحديثة عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرى ، ولا سبيل إلى حرية حقيقية ووجود أصيل إلا بكسر طوق هذا الوجود المشوه مع الآخرين .

(الدولة) أو المجتمع كلاهما له تأثير هام فى تشكيل الشخصية وخاصة فى مرحلة الطفولة والشباب . ويؤكد رسل أنه إذا طغى الحشد على الفرد بحيث يؤدى إلى طمس معالم شخصيته ، فهو يعد فى هذه الحالة ضار ، أما إذ حدث تلائم بين آراء الفرد ، هذا الجمع ، فعند هذا الحد لا يصبح الحشد ضاراً .

«إن الخوف من الحشد متأصل فى أغلب البشر ، وهو يولد الحقد والكراهية خاصة حينما لا يستطيع الفرد التكيف مع هذا الحشد . وأنه من أجل الطبائع الاستثنائية ، هناك قيمة تربوية عظمى فى الوقوف ضد الحشد ، لأن أولئك الذين اعتادوا على الحرية سوف يشعرون أن سلاسل العبودية أكثر إذعاجاً من أولئك الذين كانوا عبيداً منذ الولادة». (١١)

الوطنية وأثرها فى التربية :

يرى رسل أن حب الوطن أو الأسرة أو البيت لدرجة معينة واجب يستحق الفخر ولا احتجاج عليه ، أما أن تدرس الوطنية فى المدارس ، وتهدف إلى أهداف معينة، ويعلم النشىء أن إخلاصهم الاجتماعى يجب أن يكون للدولة التى هم مواطنون فيها ، وأن من واجبهم أن يفعلوا حسب توجيهات حكومتها ، ويدرسون تاريخاً مزيفاً وسياسة كاذبة ..
« إنهم يعترفون أن الحروب التى اشتركت فيها دولتهم كانت حروباً

دفاعية الهدف منها نشر الحضارة ، أو الدين ، فالهدف رفيع المستوى، أما الحروب التى خاضتها دول أخرى فهى حروب عدوانية ، هذا النوع من الوطنية أو القومية لهو أشد خطراً فى وقتنا الحاضر ، وهو أخطر بكثير - فيما يرى رسل - من السكر أو تعاطى المخدرات أو سوء الأمانة .

ويرى رسل أنه لابد من التخلى عن عادة إطناب سلوك أمة على حساب أخرى ، فالتاريخ يجب أن يكون تاريخ العالم أكثر من أن يكون تاريخ قومى .

إن هذا النوع من الوطنية الذى يدرس فى المدارس وتؤكده أجهزة الدعاية والإعلان سيؤدى بحضارتنا إلى الدمار ، فلابد إذن أن تسود التربية روح مختلفة .

إن أبرز مساوئ التربية السلبية تكمن فى تدعيم الولاء القومى بمعناه الضيق فى نفوس الناشىء ، حيث يتعلم الأطفال أن بلادهم أفضل البلاد ، وتسعى كل دولة إلى بث روح الكبرياء والوطنية ، وهى تعلم أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا حرفت التاريخ .

وهكذا يصبح التعليم قوة جديدة تعمل على تشكيل غريزة القطيع فى أسوأ أشكالها الممكنة ، ويصبح فى النهاية عاملاً من عوامل الكراهية

والحقد والحرب بدلاً من أن يكون عـامـلاً من عـوامل الحب والسـلام والتعاون بين البشر .[١٢]

ومـا ينطبق على التـاريخ ينطبق أيضـاً على الدين والأخـلاق ، فـالمدارس التـابعة للدولة تصبح شـديدة التـعصب ، كالمدارس التى تسيطر عليها الكنائس .

يقول رسل :

«قد بلغنى أن كلمة الله محرم استـعمالـها فى المدارس الإبتدائية الفرنسـية ، والنتيـجة فى كل الحالات واحدة ، أن يقمع البـحث الحر، ويجد الطفل نفسه ازاء عقيدة جامدة أو صمت كصمت القبور.»[١٣]

ولا يمكن أن تكون حرية البحث مكفولة ، مـادام الهدف من التربية هو خلق أجيال من المؤمنين أو الدجماطيقيين لا من المفكرين ، وإرغام الصغار على اعتناق آراء محددة فى مسائل يحوطها الشك ، بدلاً من مساعدتهم على التفكير الحر .

« إن التـعليم يجب أن يغذى الرغبـة فى الوصول إلى الحـقيـقة ، لا الإيمان بأن عقيدة معينة هى الحقيقة ، أما التعليم الذى أساسه وجوب تصديق كل مـا يدرس سرعان مـا يقـود المرء – فى خطوات سريعة – إلى فـسـاد القـوى الذهنيـة ، ولا يمكن المحـافظة على الحـد الأدنى الضرورى من التقدم البشرى إلا بالإبقاء على روح البحث الحر».

« الدين على هذا النحو يكون عاملاً على أن ينشأ الفرد راضياً بما قسم له فى الحياة الدنيا ، أعنى ألا ينشأ ثائراً داعياً إلى إنقلاب ، ومن ثم ترى الدين معيناً للدولة على بقاء الأنظمة القائمة ، وعلى أن يصاغ النشىء على نموذجها وغرارها».(١٤)

دور المعلم ، وأهداف التربية :

يرى رسل أن المشكلات التى يمكن أن يدور حولها البحث فى التربية تتعلق أساساً :

١) أهداف التربية من ناحية .

٢) الوسائل التى تحقق أو تساعد على تحقيق هذه الأهداف من ناحية أخرى . والمعلم (١٥) هو أحد هذه الوسائل ، بل هو الوسيلة الأساسية والفعالة فى تحقيق الأهداف التربوية على النحو الأكمل ، فما هو دور المعلم ، وماهى الصعاب التى تواجهه نحو إنجاز هذا الدور ؟

(١) الاستقلال الفكرى أمر ضرورى للغاية لإنجاز دور العلم وقيامه بعمله ، ولكن السلطات الدولية وخاصة الكنيسة أدت إلى إعاقة المدرس عن القيام بعمله على الوجه الأكمل ، حيث أصبح المعلم فى ظل هذه الظروف مجرد تابع ينفذ ما يملى عليه بواسطة أناس ليسوا فى مستوى تعليمه أو ثقافته . وهذا النمط من التعليم – من قبل السلطة المتغطرسة – يفرض الخوف والجبن والطاعة العمياء

للسلطة دون التساؤل عن سبب هذه الطاعة ، وهذا يؤدى بالتالى إلى خنق حرية الفكر ، البعد عن التنافس الحر البناء ، كما يؤدى إلى التعصب والجهل بما يدور من أحداث خارج البلاد .

ويؤكد رسل أن هذا يظهر بوضوح فى المجتمع الألمانى (النازى)، الشيوعية الروسية .

(٢) يرى رسل أن هناك معتقد شائع ، هو أن الأمم تقوى بمماثلة وإطراد الرأى ، والإحجام عن الحرية ، وهذا معتقد خاطئ ، لأن الأمم قد إنزلقت إلى الدمار باعتمادها على هذا الفكر الضيق ، بدلاً من الاعتماد على المناقشة الحرة والتسامح وعدم التعصب للرأى الأوحد ، ومن أهم المعوقات التى تقف حائلاً أمام المعلم دون القيام بوظائفه الرئيسية : الانحياز لأى حزب أو طائفة من شأنها أن تؤثر على تعاليمه، فهذه الأحزاب قد تتبنى مواقف معينة ، وتفرضها على الآخرين، والمعلم الواعى هو الذى يستطيع مقاومة ذلك ، وأن ينظر إلى الرأى والرأى الآخر ، وأن يعلو فوق الانفعالات الوقتية التى قد تحجب نظره عن رؤية الحقيقة . كما أن وظيفة المعلم لا تقتصر على النقد أو الهدم فقط، بل هى وظيفة إيجابيه قوامها غرس القيم فى نفوس النشيء.

(٣) المعلمون – فيما يرى رسل – هم حُماة الحضارة ، وعليهم أن يكونوا على علم بماذا تكون الحضارة ، وكيف توصل إلى

النشىء، ومن ثم فلا بد أن يكون المعلم واعياً بحقيقة وروح جميع الإتجاهات الفكرية الموجودة فى عصره ، كما يجب أن تتسع ثقافته بحيث تكون شاملة لما يجرى خارج البلد أو العصر (أى خارج حدود المكان والزمان) . فالوعى بمعنى الحضارة وأهميتها سواء فى المجال المعرفى أو القيمى ، هذا لن يتحقق بتكنولوجيا العلم فقط ، ولكن بممارسة القيم الأخلاقية ، وبروح الرؤية الشاملة. كذلك عليه – إلى جانب تحرره من قيود الزمان والمكان – أن يتحرر نفسياً (داخلياً)، بمعنى أن تصبح مشاعره تواقة إلى الحب والجمال والفن .

إذا استطاع تحقيق هذا ، فإنه يمكن – من خلال تدريسه – أن يوصله إلى من يرعاهم بعناية .

(٤) المعلم الناجح هو الذى يستطيع أن يشمل طلابه بدفء العطف الأبوى، الذى يؤدى إلى توثيق العلاقة بينه وبينهم ، وعليه أن يعلم النشىء كيفية اقتناء الفضائل عن طريق تنمية حاسة الفهم، وتذوق الفضيلة ، والبعد عن روح الحقد والخيانة وما إلى ذلك من سلبيات تجعل النشىء غير صالح فى المجتمع .

– التفاعل بين الطالب والمعلم ، والعلاقة التى تقوم على الحب والتسامح والمودة أكثر مما تقوم على الأمر والطاعة ، المشاركة

الوجدانية، فتح باب التضوو الذهنى . كل هذا يؤدى إلى خلق جيل صالح بعيداً عن العُقد والمشاكل والوصول إلى المعنى الحقيقى للسعادة.

- ولكن من أخطر المعوقات التى تقف حائلاً أمام المعلم هو أن يهتم فقط بمجرد تلقين النشىء ببعض المعلومات ، دون الاستفادة بها فى المواقف اليومية أو الجوانب الحياتية . هذا المعلم مجرد ملقن أو ناقل – فيما يرى رسل .

(٥) لابد من وجود قدر من الحرية فى علاقة المعلم بالنشىء ، فالمدرس مثل الطبيب، لديه غرض هو العلاج ، ولكن المؤسسات تقف – فى كثير من الأحيان – أمام تحقيق هذا الغرض . والوسيلة الوحيدة لمنع هذا الاحتكار فى مجال التعليم هى كفالة مستوى معين من الاستقلال لمن يؤد العمل العام ، والمدرس يحتل المرتبة الأولى بين هؤلاء . المعلم – مثل الفنان ، الأديب، الفيلسوف، لا يستطيع أن يؤدى عمله بنجاح إذا لم يشعر أنه حر ومستقل، يوجه بدافع خلاق من داخله ، وليس مهيمناً عليه من قبل سلطة خارجية .

وإذا رغب العالم فى الاستفادة من العقول الفذة، فيجب أن يترك لها العنان دون قيد، لأن الحرية هى العلاج الأمثل لحل ما يواجه المعلم من مشكلات ، وكبت هذه الحرية لا يؤدى إلى نجاح .

من خلال إنجاز المعلم لدوره دون معوقات ، والتى تتلخص فى جعل النشيء غاية فى ذاته بعيداً عن أية مصالح تتعلق بالدولة أو الكنيسة أو ما شابه ذلك من مؤسسات ، إذا حلت الحرية الفكرية وتنمية العقول محل الطاعة والقبول السلبى والتصديق الأعمى دون تساؤل ، روح المعارضة المرتبطة بالاستيعاب والادراك الواضح وإثارة الشك البناء وحب المغامرة بدلاً من القناعة بالوضع الراهن والفتور والسلبية، إذا أمكن القضاء على الخوف ، لأنه يعوق تقدم البشرية ، وحل محله الأمل والبهجة ... إذا حدث كل هذا تستطيع التربية أن تحقق أهدافها المنشودة (*)(١٦)

التربية لا يجب أن تهدف إلى معرفة حقائق ميتة بقدر ما تهدف إلى خلق أنشطة جديدة ، موجهة نحو العالم الذى نبذل جهدنا لتحقيقه ، من يتعلم بروح مليئة بالأمل والمغامرة والرغبة والبهجة

(*) حرية المغامرة : " رهبة المجهول "

المجهول شيء غريب غير مؤنس ، ولابد أن نجعله معلوماً حتى يصبح الكل نوراً ، لأن علم الإنسان بشيء معناه حريته .

إن التحرر من قيود المكان والزمان هو ابرز ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية ، مغامرة الإنسان فى مواجهته للمجهول وكشف أسراره ، ثم تسخيره وتسييره إلى حيث أراد له الإنسان أن يسير إنما هى صميم حرية الإنسان .

أما الخوف من المجهول أو الخوف من الاقدام على المغامرة والاقتصار على محاكاة الآخرين تستغرق ذواتنا (١٧)

يكون قادراً على أداء دوره فى إيجاد مستقبل أقل كآبة من الماضى. (١٨)

نخلص من هذا إلى أن أهداف التربية تنحصر فى :

– أن يكون النشىء غاية فى ذاته ، وليس وسيلة لتحقيق أغراض ومصالح معينة .

– أن يحب المعلم طلابه أكثر من وطنه أو كنيسته ، وإذا لم يكن كذلك لايستحق هذا اللقب ، والمعلم إذا أصبح عاجزاً عن بذل العطاء والحب فلن تتطور الشخصية ولا الذكاء الإنسانى بطريقة حرة .

– لا يكفى أن يحب المربى "النشىء" ، ولكن إلى جانب هذا عليه أن يكون على دراية بمعنى "التفوق الإنسانى" .

ويقدم رسل أربع سمات يرى أنها أساس متكامل للشخصية وهى :

" الحيوية ، الشجاعة ، الحساسية، الذكاء" * فالرعاية الصحية والجسمية والعاطفية والعقلية تؤدى إلى تكامل الشخصية المثالية .

---

* The Four characteristics to form the Basis of ideal character are : vitality , courage, sensitiveness and intelligence.
(The aims of Education, from the Basic writing of B. Russell. p. 417).

والشجاعة عند رسل تعنى غياب الخوف ، ليس الخوف الخارجى الذى يتم التعامل معه بوسائل القمع ، ولكن الخوف الذى ينبع من الداخل ، ومن ثم لا بد أن يحل التعاطف محل الخوف ، ثم يأتى الذكاء، لأنه بدونه لا يمكن أن يبقى العالم الحديث ، وقليلاً ما يتقدم.

لذلك فرعاية الذكاء يعد واحداًمن أهم أهداف العملية التربوية .(١٩)

إعتقد الناس أن الخوف هو الإسلوب الوحيد لجعل النساء فاضلات، فتم تربيتهم على الخوف ليصبحوا جبناء عن عمد ، جسمياً وعقلياً ، هؤلاء – فيما يرى رسل – يشجعن الأعمال الوحشية والكذب والنفاق الزوجى ، كما أن أطفالهم يصيروا مشوهين بسبب الخوف الوراثى . لكن جيل من النساء دون خوف يمكن أن ينقل العالم ، وذلك عن طريق تربية جيل من النشيء أقل خوفاً ، أكثر صراحة ، أكثر استقامة ، أكثر حرية .

«التربية هى التى تقدم لنا الصفات السيئة كما أنها يجب أن تقدم لنا الفضائل العكسية ، إن التربية هى الطريق للعالم الجديد»(*)

---

* Its Education that gives us these bed qualities and it must give us the opposite virtues.
Education is the key to the new world. (20)

الهوامش

(١) جون ديوى : الديمقراطية والتربية : التربية ومشكلات المجتمع ص ٣٢ .

(2) Robert E. Egner and Lestar E.Domonn : The Basic writing of Russell B : Education p. 45 , p. 401 : 412.

(3) Russell B : Education and Social order : london . George Allen and Unwin ltd. F.p. 1932.

(4) ------------ : Ibid : ch II : The negative theory of Education p, 29 : 33 .

(5) Russell B : Sceptical Essays, London 1952, ch. xiv : Freedom versus Authority in Education p. 184 : 201.

(6) ----------- : Principles of social Reconstruction ch. III : Education . p. 58 : 62.

(7) ------------ : Education and the modern world p. 613.

(٨) جون ماكورى الوجودية . ترجمة د. إمام عبدالفتاح ، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار الثقافة – القاهرة ١٩٨٦ (الفصل الخامس ص ١٧٢) .

(٩) هيدجر : الوجود والزمان ص ١٦٣ : ١٦٧ .

(١٠) جان بول سارتر : الأيدى القذرة ص ١٦٢ .

(11) ------------- : Education and social order ch. vii: The Herd in Education p. 88 : 100 .

(12) Russell B. : Education and social order ,ch. x patriotism in Education p 101 : 112 .

(13) Russell B. : Principles of Social Reconstruction ch. III . Education , p. 115 : 119 .

(14) -------- : Ibid p. 120 , 122 .

(15) Robert E. Egner, Lestar E. Domonn. The Basic writing of Russell . B. p. x : The Function of ateacher. (P. 48) p. 435 : 441 .

(16) ------------- : Ibid . part x : p. 46 The aims of Education p 413 : 429 .

(١٧) د. زكى نجيب محمود : عن الحرية أتحدث حـ ٥ القسم الأول . ص ٥٥ : ٦٠.

(18) Russell B. : Principles of Social Reconstruction. london. N. Y. 1916 . ch III p 120 - 122 .

(19) Robert E. Egner, Lestar E.Domonn. The Basic writing of Russell B. p. 449.

(20) Russell B. : On Education, london : Education and the good life N. Y. 1962.

★ ★ ★

(ب) الأخــلاق والتربيــة

القيود التى تفرض على الإنسان لتضبط سلوكه ضبطاً يحقق به التوازن بين فرديته من جهة ، ووجوده داخل المجتمع ، من جهة أخرى ، إن هى إلا القواعد التى تتفرع عنها مبادئ الأخلاق .

ويرى رسل أن هذه القواعد تختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والعقيدة ، وهى بصفة عامة تختلف باختلاف الظروف المحيطة بالعمل .

فإذا تساءلنا متى يجوز الكذب؟ الإجابة دون شك : أنه لا يجوز ... لكنك تكذب إذا قابلت رجلاً يعدو فى جنون وراء رجل يريد قتله ، هنا يكون الكذب أمراً مشروعاً من الناحية الأخلاقية . كذلك فى الحروب ، وفى حالة الطبيب الذى يكذب على مريضه من أجل مصلحته ... كل هذه الظروف يجوز الكذب فيها .

وهنا يختلف رسل عن كانط الذى يؤكد أن قواعد الأخلاق مطلقة وغير مشروطة ، وأن خرق القانون الأخلاقى غير جائز تماماً * .

ذاتية القيم ** :

يقول رسل : أن أحكام القيمة الأولية يمكن تفسيرها ليس بوصفها تاكيدات أو تقريرات ، بل بوصفها تعبير عن الرغبة التى ترتبط برغبات

---

* راجع هنا : كانط وقيم الواجب ، قواعد الأمر المطلق ، من كتاب : القيم الأخلاقية ص ٩٢ : ٩٦ ، الفصل الرابع .

** عرض رسل لهذا الموضوع فى مقالته الأولى الهامة " مبادئ الأخلاق Element of Ethics ١٩١٠ ، وفى هذه المقالة دافع رسل عن موقف مماثل أو قريب جداً =

البشرية ، حينما أقول أن الكراهية شر ، فهنا لا أقدم تـأكيد ، لكن فقط تعبير عن نوع معين من الرغبة أو الانفعال [٢].

الرغبة الذاتية ، الرغبة الغير شخصية (العامة)

أكد رسل كثيراً – فيما يتعلق بالعبارات الدالة على أحكام خلقية – على التفرقة بين ما يسمى بالرغبات الشخصية تماماً، وما أسماه رغبات غير شخصية Impersonal . على سبيل المثال رغبة الإنسان للطعام فى حالة الجوع ، أو رغبة الإنسان الطموح للشهرة. هى رغبات شخصية ، أما الرغبة فى إلغاء القصاص أو وضع حد للتمييز العنصرى ، فهذه مستقلة تماماً عن الشخص ، هى ما يعبر عنه "برغبات غير شخصية".

= akin to لموقف جورج إدوار مور G. E. Moor فى كتابه " مبادئ الأخلاق Principia Ethica ".

ففى تعريف رسل للخير والشر كتب يقول :

"إنهما كيفيات أو خصائص موضوعية مستقلة تماماً عن رأينا الخاص أو رغباتنا ، تماماً مثل الدائرة أو المربع .

وحينما أعاد طبع مبادئ الأخلاق فى عام ١٩٥٢ ، عدل عن هذا الرأى، وقال أنه لا يوافق على النظرية القديمة التى دافع عنها من قبل " [١]

عرض رسل لموقفه الجديد عن ذاتية القيم فى مقدمة " عبادة رجل حر A free Man's worship1921 ، ماذا أعتقد What I believe 1925 ، وفى كتابه Outline of ph. 1927 ، ثم فى الدين والعلم Religion and Science 1935 ، و القوة Power 1938، المجتمع الإنسانى فى الأخلاق والسياسية The Human Society in Ethics and politics 1955 .

ونحن فى أحكامنا الخلقية إنما نعبر عن رغباتنا الغير شخصية، فالملك الذى يقول أن الملكية أفضل من الاشتراكية - فيما يتعلق بأشكال الحكومة - يستخدم كلمة أفضل بالمعنى الأخلاقى ، كى يعبر عن رغبته ليس فى أن يظل حاكماً ، ولكن رغبته فى أن تكون لدى البشر أنظمة ملكية بغض النظر عن مكانته الشخصية .[٣]

ما الذى يجعل الفعل خيراً أو شراً ؟ ما معيار الوجوب الأخلاقى ؟

يجيب رسل على ذلك بقوله :

إن ما يجعل الفعل خيراً أو فضيلة، ليس أنه يصدر عن سلطة سياسية تتمثل فى الحاكم ، أو سلطة دينية مصدرها الله ، أو سلطة اجتماعية مصدرها العرف أو التقاليد ، كل هذا لا يعد مصدراً للفعل الخلقى - فيما يرى رسل - بل الأدنى إلى الصواب هو أن يصدر الفعل من الداخل.

ويمكن القول بأن كل عمل يصدر عن "الحب" فهو خير ، وما يصدر عن "الكراهية" فهو شر .

ويعلق رسل على هذا الرأى بقوله : إن يكن صحيحاً من الوجهة العملية ، فإنه ناقص من الناحية الفلسفية..

فما الذى يجعل حافز الحب خيراً ، حافز الكراهية شراً ؟

يرى فريق أن الحكم على خيرية الأفعال أو شريتها، مرهون بما يلحقها من نتائج ، وهذا ما يقره مذهب المنفعة فى الأخلاق ، فهو يرى أن السعادة هى الخير ، وإذا أردت الحكم على فعل ما بالخير أو الشر، فابحث عن نتائجه من حيث تحقيق السعادة للإنسان فى حياته الدنيا.

أما چورچ مور - الذى اتفق رسل معه فى البداية - فيعرف الخير بأنه صفة فى الفعل تدرك إدراكاً مباشراً وليست بالنتيجة التى نستدل عليها من مقدمات ، ولكن رسل يرى أن الخير والشر معيارهما الرغبات الفطرية .

والخير فى تصوره فكرة إجتماعية (أو رغبة غير شخصية) غايتها أن نقضى على ما بين الناس من تضارب ، وهذا التضارب لا يقف عند حد الأفراد فحسب ، بل يكون كذلك بين رغبات الشخص الواحد فى أوقات مختلفة . " الخير هو إحداث التوازن بين رغبات متضاربة سواء على المستوى الفردى أو بالنسبة للمجتمع " .

وهنا يمكن القول : لماذا يكون الحب أفضل من الكراهية ، لأن الحب يخلق الإنسجام بدلاً من التنافر والصراع بين رغبات الأشخاص .

وحين أقول : إن الكراهية شر والحب خير ، فمعنى ذلك أننى أقول : وددت لو لم يكن بين الناس كراهية ، وأن يسودهم الحب .

وبهذا يصبح الفعل الخلقى معبراً عن رغبة الإنسان الذاتية ، وليس عن صفة موضوعية فى الفعل ذاته .

وعلى هذا ، فالأحكام الأخلاقية ليست مما يوصف بصواب أو خطأ، وبالتالى لا يجوز لها أن تكون علماً أو جزء من علم . ومع هذا فليست الأحكام الأخلاقية هى من قبيل العبارات الذاتية الصرفة – التى لا تعدو حدود قائلها – وإنما ما يميز العبارة الأخلاقية أن قائلها يعبر بها عن رغبة غير شخصية يتمنى أو يود أن يطبقها الناس جميعاً فى سلوكهم. (٤)

الحياة الطيبة *

تختلف الحياة الطيبة باختلاف البشر فى الزمان والمكان ، وهناك تصورات عديدة للحياة الطيبة .

يقول رسل : « أنا لا استطيع أن أجزم بأن رأى فى الحياة الطيبة على صواب ، ولكن ما أرجوه أن يكون ملائم قدر الإمكان .

والحياة الطيبة عنده هى " الحياة الملهمة بالحب ، والمرشدة بالمعرفة أو الحكمة " (٥)

وحينما أقول أن الحياة الطيبة هى التى يكون ملهمها الحب ومرشدها الحكمة، فإننى أود أن أعيش هذه الحياة ، ويعيشها الآخرون

* The good life is one inspired by love and guided by knowledge.

معى فى نفس الوقت – وهذا ما عبر عنه رسل بأن الرغبات فيما يتعلق بالحكم الأخلاقى هي رغبات اجتماعية (غير شخصية) – الحب والمعرفة كلاهما ضرورى للحياة الطيبة ، ولكن الحب أقوي لأنه يقود البشر العقلاء إلى البحث عن المعرفة .

افترض أن لك إبناً مريضاً : الحب يجعلك تتمنى أن يشفى ، أما العلم فيخبرك كيف يتحقق الشفاء ، العلم هنا وسيلة لتحقيق غاية ، ولا توجد وسيلة تجعل البشر يفعلون أشياء لا يرغبون فى فعلها .

ولهذا ، فخارج نطاق الرغبات البشرية ، لا يوجد معيار أخلاقى. ما يفرق الأخلاق عن العلم هو موضوع الرغبات . والمعرفة التى تكتسبها فى مجال الأخلاق هى مثل أى معرفة، ولكن ما يميزها أن غايات معينة يكون مرغوب فيها ، والسلوك الأخلاقى هو الذى يؤدى إلى تحقيق هذه الرغبات .

هكذا نرى أن ثمة عالمين يعيش فيهما الإنسان ، يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافاً بعيداً : عالم الطبيعة ، عالم القيم .

نحن جزء من الطبيعة التى أنتجت رغباتنا ، آمالنا ، مخاوفنا، طبقاً لقوانين معينة ، والإنسان يعيش فى عالم الطبيعة ، أفكاره العقلية وحركاته الجسمية، خاضعة لنفس القوانين التى تسير بمقتضاها الذرات والنجوم ، وبهذا المعنى نحن خاضعون للطبيعة ، ضحاياها على المدى الطويل .

أما فى عالم القيم، فالموقف معكوس ، الطبيعة هى الجزء فقط ، وكل شىء سواء فى الواقع أو الخيال يمكن تقييمه عن طريقنا ، نحن الحكم النهائى للقيمة .

وعلى هذا ، فإذا كنا فى عالم الطبيعة نخضع لها ، فإنها - فى عالم القيم - تخضع لنا إن جاز التعبير ، لأن الطبيعة هنا محايدة. ليست خيرة أو شريرة ، لا تستحق الاحترام أو الاحتقار ، بل نحن الذين نخلق القيم، ونخلعها على الأشياء ولا سلطان علينا فى ذلك (٦).

الأخلاق الفردية والاجتماعية * :

يرى رسل أن الواقع ، الذى تؤيده السجلات التاريخية منذ أقدم العصور ، هو أن المعتقدات الأخلاقية ترتكز على أساسين مختلفين كل الاختلاف . أحدهما سياسى ، والآخر خاص بالمعتقدات الأخلاقية والدينية .

الأول يندرج تحت إسم القانون ، والثانى : الرسل prophets - هذا فى العهد القديم old testament ، كذلك فى العصور الوسطى نجد نفس التفرقة كانت سائدة ، فالأخلاق الرسمية التى تمليها السلطة من ناحية ، والورع الشخصى الذى كان يمارسه المتصوفة .

* Russell. B : Authority and individual : ch. vi Individual and Social Ethics. p. 107 : 128 , The Basic writing of Russell. B : p 357 : 365 .

وهذه الثنائية في المعايير الأخلاقية كثنائية تواجهنا الأخلاق الشخصية والأخلاق كما يمليها الوضع السياسي والاجتماعي ، أو ما يسمى بالأخلاق المدنية .

ويعرض رسل هنا الصلة التي تربط بين النظريات الاجتماعية والسياسية من ناحية ، وبين الأخلاق الفردية من جهة أخرى .

وفيما يتعلق بالأخلاق الفردية يرى رسل أنه لا يوجد إنسان يتمتع بحرية مطلقة أو يخضع لعبودية مطلقة ، ولا مناص للفرد من الاحتياج إلى قانون أخلاقي يحكم تصرفاته إلى الحد الذي يستمتع فيه بحريته . احترام القانون شرط أساسي للاحتفاظ بأي نظام اجتماعي ، ولكن ليس معنى هذا الانصياع المطلق للعرف الاجتماعي حتى لو بدا ذلك جائراً ، فإذا بدا للإنسان أن أي قانون من القوانين المعمول به سيىء فله الحق ، بل ربما وجب عليه أن يعمل على تغييره .

من هنا نقول أن المجتمع بلا أخلاق مدنية لابد مقضي عليه بالزوال وبلا أخلاق شخصية لن يكون لبقائه قيمة ، وإذن لابد من معايير أخلاقية شخصية وأيضاً اجتماعية حتى يستقيم لنا هذا العالم .

– ولا يقتصر علم الأخلاق على الانصراف لأداء الواجب فقط بل يهدف إلى هدف آخر يتحقق ببذل أقصى الجهود ، هذا هو تحقيق السمو بالنفس .

«إن الأخـلاق لا تُعنى فـقط بواجـبى نحـو جـارى، مـهـمـا نبلغ من الصواب فى تصورنا لمثل تلك الواجب ، فأداء الواجب نحو الناس ليس هو كل ما تتطلبه الحياة الصالحة ، بل هنالك أيضاً متـابعة الإنسان السمو بنفسه »(٧)

نعم الإنسان مخلوق اجتماعى ، لكن ليس الطابع الاجتماعى للفرد هو كل شيء ، فلديه الأفكار والمشاعر والغرائز التى ربما تكون متصفة بالحكمة أو الحمق ، مليئة بالحب أو مفعمة بالكراهية ، ومن الخطر أن نمكن السياسة أو الواجب الاجتماعى حق أن يكون لهما الأثر الأكبر فى تكييف عقيدتنا تكيفاً يحدد لنا معنى الكيان الفردى .

يجب علىّ أن استجيب لضميرى إذا ما اعتقدت أنه من الضرورى أن اتصرف تصرفاً لاتقره السلطات الحكومية – ، وعلى النقيض من ذلك ينبغى على الحكومة أن تتيح لى مطلق الحرية فى الاستـجـابة لمعتقداتى ، ما لم توجد أسباب قوية تبرر الحد من هذه الحرية .

ليست الأعمال التى يمليها الواجب هى وحدها التى يجب أن تكون فى مأمن مما تفرضه الجماعة من قيود الضغط الاجتماعى .

الفنان أو العـالم المتصرف للكشف العلمى قد ينتج انتـاجـاً يعود بالنفع الكثير على المجتمع ، دون أن يكون متـأثراً بما عليه من واجب

فحسب، بل يجب أن يشعر بغريزة تلقائية تدفعه إلى الكشف والتصوير وإلا فلا قيمة لإنتاجه .

كذلك هناك أعمال ذات قيمة أخلاقية بصرف النظر عن نتائجها أو منفعتها الاجتماعية .

« يجب عليك أن تفعل الحق لأنه حق لا لأنه الطريق إلى جنة بعد الموت» *

إن الذين يفخرون بأنهم آثروا الناحية العملية من الحياة هم هؤلاء الذين انصرفوا بكامل تفكيرهم إلى الوسائل لا الغايات ولكن تفكيرهم هذا هو نصف الحكمة لا الحكمة كلها .

إن المجتمع لم يوجد ككيان معقد تشابكت أجزاؤه فى دقة وإحكام ، وإنما وجد إبتغاء تحقيق الحياة السعيدة لأفراده ، إذ الواقع أن القيمة النهائية التى يصبو إليها المجتمع هى قيمة الأفراد لا قيمة المجتمع كنظام قائم بذاته ، وما قصد بالمجتمع السليم إلا أن يكون وسيلة لتوفير أسباب الحياة السعيدة للأفراد الذين يعيشون فيه لا شيئاً مثالياً له كيانه الخاص بمعزل عن هؤلاء الأفراد ، فإذا قيل أن المجتمع كائن

* You must do right becouse it is right, and not becouse it is the way to heaven.

* Authority and individual. p. 125, The Basic writing of B. Russell. p. 361.

حى ففى هذا ضرب من المماثلة التى تكون خطيرة ما لم تتبين ما تنطوى عليه من نقاط الضعف . (٨)

الواقع أن الإنسان وكذلك الحيوانات العليا يمكن أن توصف بأنها كائنات حية بكل معانى الكلمة، وكل ما يصيب الفرد من خير أوشر ينصب عليه كشخص واحد ، الإنسان بمفرده هو الذى يتحمل تبعة الخير والشر، والاعتقاد بأن الخير والشر قد يصيب هيئة اجتماعية بأكملها بمعزل عما يصيب أفرادها من خير أو شر اعتقاد خاطئ .

نقد نظرية التطور :

هناك نظرية أخرى خاطئة هى ما ترتبط بنظرية التطور والتى ترى أن تنازع البقاء قد أدى فى مراحله المختلفة إلى بعث كائنات حية أكثر تعقيداً من سالفتها ، وعلى هذا يعتبر البقاء هو الهدف الأسمى . ومعنى ذلك – لو صحت هذه النظرية – إن كل العوامل التى تعمل صوب زيادة عدد سكان الكرة الأرضية يمكن أن تتسم بالخير، والعوامل التى تتعاون على إنقاص عدد السكان تتسم بالشر .

ولست أجد الآن أى مبرر للإعتقاد فى صحة هذه النظرية الآلية الحسابية، إذ من السهل أن نجد فداناً واحداً من الأرض يحتله عدد من النمل أكثر عدداً من الإنسان على سطح الأرض، ولكن لن نعترف – على هذا الأساس – بسمو النمل على الإنسان .

ولا جدال بالطبع أن البقاء هو الشرط الأساسى ، ولكنه شرط فقط، للاستمتاع بماله من قيمة ، أما مجرد البقاء فليست له قيمة مقصورة عليه بمعزل عن القيم الأخرى .

البقاء فى هذا العالم يتطلب رقابة حكومية من ناحية ، قوة ابداعية إبتكارية للفرد من ناحية أخرى ، ولا بد من التوفيق بين هذين المطلبين : التماسك الاجتماعى ، الابتكارية الفردية Individual Innitiative , So- cial cohesion .

القواعد الخلقية للسعادة :

إن العالم – لا فى الحياة العامة وحدها – ولكن فى الحياة الخاصة أيضاً – بحاجة إلى طرق للتفكير والشعور تتلائم مع مانعرف ، ومع ما نستطيع أن نعتقد فيه، وما نشعر أننا مرغمون على عدم الإيمان به.

هناك طرائق تقليدية لا تتلائم مع العالم الذى نعيش فيه ، والذى جعلت فيه الوسائل الفنية الحديثة متطلبات جديدة .

الخطيئة والشعور بالذنب يجعل السعادة الحقيقية مستحيلة.

ما يريده رسل هو أن الإنسان لا يقوم بالفعل أو يحرم الفعل لأنه حرام ، ولكن لأن أفكاره ومشاعره تباعد بينه وبين عمل هذا الفعل ، النمط القديم يحرم الفعل – كالقتل أو الجريمة – لأنه حرام ، بينما

النمط الجديد – الذى يراه رسل – يمنع الفعل لأنه يتنافى مع التفكير السليم والوعى والشعور .

فالطريقة التى تسمو على اللذة الوقتية ليست فى كبح النفس وإنكار الذات وادانتها ، ولكنها الحياة الطيبة .

يقول رسل :

« ما أريد أن أضعه محل الناموس الخلقى بالمعنى القديم هو تشجيع جميع الدوافع الخلاقة البعيدة المدى وإتاحة الفرصة لها » .

« أود أن أبذل كل جهدى لتحرير الناس من الخوف، وذلك ليس بمجرد الفرض العقلى، ولكن لموضوع يؤمن به القلب من تلقاء نفسه .

إننا لا نحقق السعادة لأنفسنا بإنزال الألم بالآخرين، ولكن السعادة والطريق إليها يتوقف على الإنسجام مع غيرنا من الناس »(٩).

لقد تحدث علماء الأخلاق طوال العصور عن فضيلة ضبط النفس فكانت نبراساً لهم فى كل آن ، ولكنها فى الماضى كانت ضبطاً للنفس لا فهماً لحقيقة تلك النفس .

الواقع أن فهم هذه الاحتياجات الإنسانية وتقديرها هو وحده الطريق لتحقيق آمالنا .

يجب أن يتعلم الإنسان الشجاعة والمغامرة وعدم الخوف ، ويجدر بنا ألا نتجاهل الغرائز الخاصة بنا ، أو نأسف لأنها خلقت فينا لأنها هى

نسيج الإنسانية الأصيل ، أو مصدر كل ما توفر للإنسانية لا من شر فقط ولكن من خير أيضاً .

هكذا يعود رسل إلى ربط الأخلاق بالتربية السليمة التى تدعو إلى نمو الفردية والتلقائية وتدعو إلى الحرية ، وهذا ما أكد عليه حينما تحدث عن التربية وأهدافها ، وما سيؤكد عليه حينما يتحدث عن الدولة وفى شتى مجالات فكره العملى .

★ ★ ★

الهوامش

(1) Reading in Ethical theory, New York, 1952. p. 6 - 7, (from the Encyclopidia of ph. (Russell. volum 7, 8 , p. 257).

(2) Russell B. : Religion and Science p. 257.

(3) ---------- : Ibid p. 236.

(4) ---------- : Religion and Science p 236 - 237.

(5) The Basic writing of Russell B. : (p43). good life p.371 : 374.

(6) Russell B : what I believe p. 16 - 17 .

(7) ---------- : Authority and Individual . p 111 .

(٨) راجع هنا : رسالتنا للماجستير : هربرت سبنسر ، وفلسفه التطور : الباب الثالث : الفصل الأول ، التطور الاجتماعى عند سبنسر، المماثلة العضوية بين المجتمع والكائن الحى . ص ١٦٤ : ١٨٣.

(9) Russell. B . : The Human Society in Ethics and politics . p. 65 .

(جـ) الـديـن والتربيــة
(أثر المعتقدات الدينية فى حرية الفرد)

نقد الدين :

إن "الدين" فيما يرى رسل ، كلمة لها معان كثيرة وتاريخ طويل ، وقد كان أول أمره يهتم بطقوس معينة ، ورثها الناس من الماضى السحيق ، وكانوا يقومون بها لأسباب عفى عليها النسيان ، أسباب محاطة بأساطير شتى للبرهنة على أهميتها . ولا يزال الكثير من هذه الأساطير موجود حتى الآن .

وكما أكد رسل أن للأخلاق مصدران : شخصى واجتماعى ، فنراه يؤكد هنا نفس الثنائية فيقول أن للدين جانبان : أحدهما شخصى والآخر إجتماعى .

والأديان – منذ بداياتها الأولى– فى انعصور المبكرة – كان لها هذا الطابع الاجتماعى، " الأرواح القوية تعاقب القبيلة ككل : وأى شر يلحق بالأسرة أو القبيلة إنما هو بسبب غضب الآلهة .

ولكن مع ازدياد ونمو الحضارة عبر العصور ، أدى هذا إلى نقص الدين . *

---

* أغلب التغيرات التى طرأت على العالم منذ نهاية العصور الوسطى يعود إلى الاكتشافات العلمية الحديثة ، والتى هى السبب الأساسى للنهضة ، ولحركة الإصلاح من ناحية ، وانحلال الدين الكنسى من ناحية أخرى .

فدراسة الأصول القديمة ، تاريخ الكنيسة الأول ، طبيعيات كوبر نيقوس واكتشافاته الفلكية ، نظرية دارون فى علم الحياة وعلم السلالات ، كل هذا نسف جزءاً من صرح المذهب الكاثوليكى ، حتى لم يبق منه آخرالأمر – في نظر جميع =

عبر رسل عن الذاتية فى مجال الأخلاق ، وكان لهذا تأثيراً واضحاً على الدين ، فهو معارض قوى للدين ، ولم يتردد فى التعبير عن آرائه دون خوف .

يقول : « إننى أنظر إلى الديانات الفوق طبيعية Super naturalistic كشىء لا يمكن الدفاع عنه بالعقل».*

أكد رسل أن الاعتقاد الدينى لا يمثل دافعاً إلى الخير ، بل ما يمكن أن يحدث هو العكس ، لذا فهو يأمل أن يختفى أو يموت إلى الأبد .

وفى عام ١٩٢٢ كتب يقول :

« أنا خارج أو منشق على كل الأديان المعروفة ، وأتمنى أن تختفى كل أنماط الاعتقاد الدينى: إننى أنظر إلى الدين على أنه ينتمى إلى مرحلة طفولية للعقل البشرى ، وعلينا أن نخرج منها الآن للنمو». **(٢)

= المثقفين تقريباً - إلا هذا الأمل الغامض والشعور غير الواضح المعالم بالالتزام الخلقى.

انحلال قوة الدين التى تلزم البشر بعقائد وطقوس معينة سواء أكان هذا الانحلال شراً أو خيراً - هو واحد من أهم الحقائق التى لاتقبل الجدل فى العالم الحديث . (١)

* راجع هنا : موقف هيوم من الدين، من كتاب : الدين والمعجزة فى فكر هيوم التجريبى الفصل الثانى .

** " I am my self, he wrote in 1922, adissenter from all known religions, and I hope that every kind of religious belief will die out ..

=

وبعد سبعة وثلاثين عاماً – فى حديث تليفزيونى – أعلن رسل هذه النبؤة :

« إذا استمرت الحروب والظلم للبشر إلى حد الوصول إلى حياة تعيسة جداً ، فإنه من المحتمل استمرار الدين ، أما إذا استطاع البشر حل مشكلاتهم الاجتماعية ، وعاشوا فى رفاهية ، فإن الدين سيموت.(٣)

ومعنى هذا أن الدين مرتبط بتعاسة البشر ، وبقاء الدين واستمراره مرهون بهذه التعاسة ، وفى هذا يتفق رسل مع آراء هيوم حول هذا المعنى.

الدين والتربية :

أضرار الاعتقاد الدينى

أكد رسل أن الدين ضار " فى التربية " وخاصة تربية النشىء ، ذلك أن الدوافع التى تؤكد الاعتقاد الدينى تؤسس – بصفة رئيسية – على دافع الخوف من ناحية ، وعلى التأثير الضار للتنظيمات الدينية (الكنيسة) من ناحية أخرى .

وأوضح رسل الأضرار التى تنتج عن عادة "التسليم أو قبول" قضايا معينة عن طريق الاعتقاد دون التأكد من صدقها بالبرهان .

I regard religion as belonging to the infancy of Human reason and to = astage of development which we are now out growing"

وفرق هنا بين الفرد الذى يشكل معتقداته على براهين وأدلة ، وبين الذى يقر إعتقادات مريحة على أساس الإيمان . الأول - فيما يرى رسل - ذا عقل علمى مفتوح ، الثانى دوجماطيقى ، وقد يتعلم بعد ذلك أن هذه الاعتقادات مجرد أساطير وخرافات ، فيصبح نتيجة لذلك ، فى حالة صراع ، ويبذل قصارى جهده ليكبت النقد .

يقول رسل :

«ليس المهم ماذا نعتقد ، ولكن المهم " كيف نؤمن بهذا الذى نعتقد ". ربما تعتقد فى أقوال الكتاب المقدس أو القرآن Koran أو فى رأس مال ماركس .

أى من هذه الاعتقادات تستطيع أن تؤمن به .

إذا أسست اعتقادك على الإيمان ، فأنت ترى أن البرهان أو الحجة غير مفيدة ، وتلجأ إلى القوة ، إما فى شكل احتجاج أو عجز أو تشويه عقول النشىء ، حينما يكون لديك قوة السيطرة على تربيته وتعليمه. (٤)

ويرى رسل أنه ليس من روح الاحترام أن تنفذ التربية بواسطة الحكومات أو الكنائس ، وأن التأثيرات السيئة للتربية الدينية تعتمد على التلقين ، وقتل الحرية والفكر الحر .

على سبيل المثال فيما يتعلق بالحياة المقبلة، يعترف الحكماء بجهلهم فى هذا الشأن ، أما رجال اللاهوت المسيحى فهم يقدمون هذه الحياة

بوصفها فى صالح البشر ، "عقيدة البعث أو الخلود ، الحياة بعد الموت" من يتعلم هذا يعرف أن البقاء بعد الموت أمراً مؤكداً ، وهنا تقدم المسيحية مبررات لعدم الخوف من الموت ، وبهذا الاعتبار سيكون العالم الحالى غير هام بالقياس إلي العالم الآخر ، فالتعاسة الموجودة هنا على الأرض ، ستؤدى إلى السعادة فى السماء .

وإذا كانت هناك حياة مقبلة ، وكانت السماء مكافأة للمآسى الموجودة على الأرض ، فلا حاجة بنا إلى العمل على تحسين الأحوال أو خفض الشرور الموجودة فى هذا العالم . هذا النوع من التعاليم الدينية يؤدى إلى أضرار جسيمة فيما يرى رسل .

إن الأطفال الأذكياء الذين لديهم رغبة فى التفكير فى مثل هذه الأمور سيجدوا أن الجدل فيها غير مثمر ، كما أنهم لا يشجعون على التحدث بصراحة، فالمدارس فى أيدى رجال الدين - كما سبق أن ذكرنا فى الحديث عن التربية - ومن حقهم منع الصغير من الاستفسار والتساؤل ، بل لابد من الإيمان والتصديق .

هذا كله يؤدى إلى كبح الاستفهام الحر ، والإلتزام بالصمت .

وفى ظل هذا النمط سيصبح من المتعذر، بل من المستحيل تنمية الروح العلمية فى النشىء ، طالما أن أى افتراضات تعد مسبقة وغير قابلة للنقاش .

«الرغبة فى حفظ الماضى بدلاً من الأمل فى خلق المستقبل تغلبت على عقول هؤلاء الذين يحكمون العملية التربوية»(٥)

ويؤكد استاذنا الدكتور زكى نجيب محمود هذا المعنى حول موقفه من التراث ، فيرى أنه لا يجب علينا أن نقف عند حد الحفظ والتعلق بالماضى كله ، دون ملاحظة هل يتلاءم هذا الماضى مع الحاضر أم لا ، بل ينبغى أن نجعل من هذا التراث أول الطريق ، نستثمره على النحو الذى نراه نافعاً لنا .

« الخطورة على أى أمة من الأمم أن تلف عقولها فى أغشية من محفوظات الماضى ، وموضع الخطورة أنهم سرعان ما يجدون أنفسهم قد انفصلوا عن عالم الأشياء والوقائع والأحداث». (٦)

ويؤكد رسل أن من يؤمنون بالدين التقليدى هم من يخشون الكنيسة، ويعملون بطقوسها، دون أن يكون فى سلوكهم أى شيء يستحق أن يسمى ديناً ، مجرد الاعتياد على الصلاة فى الكنيسة جعلتهم لا يتأثرون بها ، كما أنهم لا يتأثروا بأقوال الانجيل التى تتكرر فى أسماعهم . مستحيل أن يكون لطقس من الطقوس تأثيره الأول فى نفس من يمارسه بعد أدائه بطريقة آلية .

وهكذا ينفصل مضمون الدين ، ويبقى منه مجرد شكلاً زائفاً ، أصبح الدين مجرد طقوساً أو شعائر تؤدى دون العمل بها *

* راجع هنا : عداء كيركجورد للكنيسة ، الانفصال بين النظر والعمل من كتابه : اليوميات : السنوات الأخيرة . (نشرها ، جريجور سميث . نيويورك ١٩١٠) ص ١٢٥ وما بعدها ، كيرجورد رائد الوجودية ، د. إمام عبدالفتاح ص١٩٥ : ٢٣٧.

وفى سنة ١٩٥٣ شرح رسل آراؤه بطريقة أكثر اكتمالاً فى مقال نشر بمجلة لوك .

يقول : اعتقادى أن وجود الله غير جائز من الناحية العملية ، إله المسيحية ليس أكثر من إمكان أو احتمال .(٧)

وفيما يتعلق بالخلود Immortality ، فموقف رسل سلبى بطريقة تشبه موقفه من الدين .

كل الأدلة تشير إلى أن ما ننظر إليه على أنه حياة عقلية خالصة هو محاط أو محدد ببنية مخية وطاقة جسمية منظمة . لهذا من المعقول أن نفترض أن الحياة العقلية تتوقف حينما يتوقف الجسم عن الحياة.

هذا البرهان هو الوحيد الممكن ، ولكنه قوى جداً لدرجة أنه تؤسس عليه كل النتائج العملية.(٨)

« الله والخلود بوصفهما الاعتقادات الأساسية للدين المسيحى لا يجدا تأييداً من جانب العلم . لا شك أن البشر ستظل معجبة بهذه المعتقدات لأنها سارة تماماً ، مثلما هو سار أن نعتقد أننا فضلاء، وأعداؤنا غير ذلك ، لكن من جانبى لا أجد أى أساس لكلاهما » .

هكذا يرفض رسل كل الحجج التقليدية على وجود الله وخلوده .

« أنا لا أدعى أننى قادر على إثبات وجود الله ، وبالمثل لا استطيع إثبات أن الشيطان Satan أسطورة أو تخيل . مثل هذه الفروض مجرد احتمالات ، وهى تقع خارج نطاق الادراك الممكن ».(٩)

يؤكد رسل الاعتراض على تبرير الاعتقاد الدينى على أساسين :

١ – أنه ينتمى إلى الشعور والعواطف والوجدانات الفطرية، أى أنه حالة شخصية ذاتية تختلف بين البشر ، وأيضاً تختلف زمانياً ومكانياً بالنسبة للشخص الواحد . ولهذا لا يمكن البرهنة على أى شيء خارج نطاق عواطفنا .

٢ – رغم أن الاعتقاد الدينى قد يكون على درجة من الأهمية – فى نفس المعتقد – إلا أن هذا ليس مبرراً للخضوع والاذعان فيما يرى رسل .

الفروض المسيحية أحياناً تدعو للإعجاب ، ولكن الكثير من تعاليم المسيح خادعة ومضللة، خاصة عقيدته عن " عذاب الجحيم الأبدى " .

ويرى رسل أنه من الناحية الأخلاقية أو العقلية – أى الفضيلة والحكمة – المسيح لا يقف عالياً عظيماً مثل بشر آخرون معروفون فى االتاريخ بالفضيلة والحكمة مثل بوذا Buddha ، سقراط .(١٠)

العلاج أو الحل :

يرى رسل أنه إذا أردنا ألا يكون الدين شيئاً ضاراً فى عالم متطور، وجب أن يتولى القيام عليه رجال تكون لهم أعمال أخرى غير المنفعة الشخصية والسياسية، رجال يقومون بعملهم بدافع الحماسة ، ولا بد

لهؤلاء ألا يتخلقوا بأخلاق تقادم عليها العهد ، ولم تعد تناسب الحياة العامة ، بل لابد لهم أن يفكروا فى المشكلات الأخلاقية والدينية تفكيراً طبيعياً غير مصطنع ، وبلا ميول ، ولا يمكن للبشر أن يحيوا حياة دينية صحيحة إلا إذا تحرروا من كابوس رجال الدين المحترفين .

ويؤكد رسل أن الذين يؤمنون بالدين التقليدى ، ومنهم مؤمنين مخلصين كل الإخلاص ، ولهم دورهم الذى نوليه احتراماً - يقتربون من الماضى يلتمسون فيه الالهام أكثر مما يلتمسونه فى المستقبل . فهم يبحثون عن الحكمة فى تعاليم المسيح ، تلك التعاليم التى مهما تكن مثيرة للإعجاب ، إلا أنها لم تعد وافية تماماً لمواجهة كثير مما جد فى الحياة الحديثة من أمور اجتماعية وروحية . ولا مناص لنا من طرح الكثير مما تعودنا أن نرده إلى الدين ، إذا أردنا يوماً أن نستحدث وجهة نظر دينية جديدة عن الحياة وعن العالم ، تحتل من جديد أذهان الأحرار وتوقظ مشاعرهم .

وإذا كان الخوف هو أساس الاعتقاد الدينى، الخوف من الكائنات البشرية ، هذا الخوف الذى يحكم حياتنا الاجتماعية ويسيطر عليها ، كذلك الخوف من الطبيعة والتناقضات الموجودة بين البشر ، والذى يأتى الدين كمحاولة للتغلب عليها .. إذا كان الأمر كذلك ، فإن أول التغيرات المطلوبة هو إقامة أسس أخلاقية ودينية إيجابية ، لا أسس تدعو إلى الخضوع والتسليم، أخلاقيات يتسامى بها الأمل ، لا اخلاقيات ترتكز

على الخوف ، أخلاق تدعو إلى العمل والتفاؤل، لا أخلاق تنهى عن أعمال لا يصح القيام بها .

إن الدنيا هى دنيانا نحن ، ويتوقف علينا أن نجعلها فردوساً أو جحيماً .

والحياة التى نبحث عنها لن تكون حياة الحرمات الخرافية ، بل حياة البهجة ، الحياة الحرة القائمة على الأمل ، وأساس هذه الحياة ينبغى أن يكون محبة البشر .[١١]

ويؤكد رسل – فى النهاية – على أنه إذا كانت أفعال البشر تصدر عن دوافع ثلاثة هى : الغريزة ، العقل ، الروح ، وإذا كانت حياة الروح هى التى تصنع الدين ، فلا يجب علينا أن تكون أفعالنا غريزية صرفة – كعالم الحيوان ، ولاعقلية خالصة ، أو روحية تماماً ، حيث تتطور الروح على حساب الغريزة والعقل ، بل لا بد من توازن هذه الدوافع الثلاث حيث أنها تلعب دوراً هاماً ، لا يمكن إغفاله – فى حياة الإنسان.



الهوامش

(1) Russell. B. : Principles of social Reconstruction ch. viii . p. 156.

(2) ------------- : Sceptical Essays . ch viii . p 101 .

(3) ------------- : Speaks his mind . p. 31. (The Encyclopidia of ph . volume , 7, 8 The critique of Religion p. 254) .

(4) Russell . B. : Human Society in Ethics and politics . p 207 - 208.

(5) Russell . B. : Education and social order ch vii : Religion in Education. p 101 - 116 .

(٦) د. زكي نجيب محمود : عن الحرية اتحدث. حـ١ . فقرة ٩ ، التراث هو أول الطريق .ص ١٠٣ : ١١٤.

(7) Russell speaks his mind . p. 24 , 25, leo Rosten, ed . Aguide to the Religion of America . N. Y. 1955 . p 150 .

(8) Russell. B. : Why I am not achristian, p. 51., The philosopher of Religion (From the Basic writing of B. Russell) (p 63) p. 585 .

(9) Russell. B.: What I believe (from the Basic writing of Russell p 368).

(10) Russell. B. : Why I am not a christian p. 19.

(11) ------------ : priniciples of social Reconstruction. p 160 - 162 .

* * *

(٣) الحرية فى المجتمع

الحرية فى المجتمع ، العلاقة بين الدولة والحرية الفردية ، أو الصلة بين الحكومة والقانون من ناحية ، الإبداع الفردى الحر من ناحية أخرى، حدود تدخل الدولة ، مزاياها وعيوبها ، التصالح أو التوفيق بين الفردية والمواطنة ... كل هذه محاور هامة عرض لها رسل فى الكثير من مؤلفاته .*

ويتساءل رسل :"ما معنى الحرية " ، وإلى أى مدى تكون مرغوب فيها بين البشر ؟؟ ويجيب على ذلك فيقول : « إن الحرية هى غياب العقبات الخارجية لتحقيق الرغبات » .

ولكن هذا لا يعنى أن تتحول الحرية إلى فوضى ، فعلى سبيل المثال: الجماعة التى يرغب كل فرد فيها أن يقتل الآخر ، لا توصف بأنها جماعة حرة ، لهذا تعديل الرغبة عند رسل أمر ضرورى من أجل الحرية، ولكن بالقدر الذى يتفق مع الظروف الخارجية ومع مصالح الآخرين فى المجتمع .

---

* فى كتابه "أسس إعادة البناء الاجتماعى"
The Principles of Social Reconstruction 1916.
أفرد فصلاً كاملاً لدراسة الدولة وما ينبغى أن تكون عليه حدود إختصاصاتها . وفى كتابه مُثل عليا سياسية ١٩١٧ تناول نفس الموضوع فى أكثر من فصل ، وفى كتابه السلطة والفرد Outhortiy and individual (1949) الذى يكاد يكون مكرساً بأكمله لهذا الموضوع وكذلك فى كتابه :آمال جديدة فى عالم متغير New hopes for achanging world 1951 ، كما تناول هذا الموضوع فى مؤلفات أخرى مثل : الحرية والتنظيم Freedom and organization 1934 ، القوة Force 1938 ، أثر العلم على المجتمع The impact of Science of society .

يقول رسل : « من أجل وجود مجتمع يتمتع أفراده بالحرية ، لا بد من التمتع بحرية الفكر ، المناقشة الحرة للأفكار ، ليس فى القول فحسب ولكن فى العمل أيضاً ، لا بد من الاصرار على حق الحياة ، وحق الفكر حتى إذا كانت هناك صعوبة فى تحقيق ذلك فى ظل المجتمعات البيروقراطية والاشتراكية على السواء . حرية الفرد ستحترم حينما يعمل ولا يضر بالآخرين . ذلك أن المشاعر المضطهدة ستقدم مجتمعاً تنميطياً أو غير قابل للتغير . Stereo typed .

« الحرية التى نبحث عنها ليست فى اضطهاد الآخرين ، ولكن فى الحق أن نعيش كما نريد ونختار ونفكر ، بحيث لا نمنع الآخرين حق العمل بطريقة مماثلة .» (١)

ويرى رسل أنه لابد من توافر قدر من الضرورات التى بدونها يفقد الفرد حريته ، لأنها تشكل الحد الأدنى من الحرية . هذه الضرورات هى: الطعام ، الشراب ، الصحة ، الملبس ، المسكن ، الجنس ، والأبوة.(٢)

أهمية المجتمع :

بالإضافة إلى هذه الضرورات ، يؤكد رسل أن الحرية لا تتأرجح فى الفضاء، ولا تتحقق فى الخلاء ، بل إنها على الأصح لا تتحقق إلا بوجود المجتمع .

فالأبوة والجنس ضرورة إجتماعية ، والحرية يمكن تحقيقها أكثر بالاستقرار الاجتماعي .

وقد أكد مفكرنا العربي د. زكي نجيب محمود على أهمية التماسك الاجتماعي في تحقيق الحرية ، في كتابه : عن الحرية أتحدث *

ولكن إلى أي مدى يسهم المجتمع في تحقيق الحرية ؟ أو بعبارة أخرى : ما دور المجتمع في تحقيق الحرية ؟

للإجابة على هذه التساؤلات ، لا بد أن نعرض لرأي رسل في الدولة أو الحكومة، لنرى إلى أي مدى تساهم في تحقيق حرية الفرد أو تحد من هذه الحرية ... مزايا الدولة ووظائفها الإيجابية ، حدود تدخلها ، وما لا ينبغي أن تفعله .

---

* يقول د. زكي نجيب في مقدمة كتابه عن رسل :

" من الجوانب التي تقرب رسل من عقلي وقلبي هو هذا الدفاع الحار عن الحرية، وكتاب استاذنا "عن الحرية أتحدث " عرض أدبي رائع لشتى جوانب الحرية ، وقد أكد فيه أن الحرية تشمل الأحياء جميعاً بدءً من الأميبا الأولى إلى أرقى ما ارتقى إليه البشر . وهو يؤكد أن الحرية هي البعد عن التعصب والآراء السلفية ، القيود التي تحد من حرية الإنسان .

وفي فقرة بعنوان " ورقة مزقها طفل " يؤكد على التماسك والبعد عن التجزئ والفردية، لأن الفرد ليس له وجود إلا داخل الكيان الكلي .

" الورقة حين كانت سليمة كانت قوية الدلالة غزيرة المعنى وهي متكاملة موصولة الأجزاء ، موحدة الكيان ، فلما تجزأت (تمزقت) أصبح كل جزء على حدا معدوم الدلالة مفقود المعنى ، وهكذا حال الفرد وهو في عزلة عن المجتمع"(٣)

الدولة :

الدولة عند رسل – على الرغم من مساوئها – تمثل ضرورة من ضرورات الحياة أملتها غريزة التجمع ، كما أملتها مواجهة تحديات الطبيعة والإنسان للإنسان .

ويعد الخوف أحد العوامل الأساسية فى إحداث التماسك الاجتماعى بين أفراد الجماعات أو الدولة الواحدة ، وغريزة التجمع هى ما نسميه الآن بالقومية والولاء الشخصى لصاحب السلطة .

والدولة مطلقة السلطان ، إلا إذا خشيت فتنة فى الداخل تنشب ضدها ، أو حينما تخشى هزيمة فى الحرب تصيبها فى الخارج . وتستطيع الدولة الاستيلاء على أموال الناس بفرض الضرائب ، كما تستطيع سن قوانين الزواج والميراث ، ومعاقبة من يجهرون بآراء لا ترضى عنها . أى أن الدولة تستطيع – متعللة بمقتضيات النظام العام أو الآداب – أن تتدخل فى ألصق الأمور بالكيان الشخصى .

كما تستطيع الدولة أن تخلق رأياً عاماً بما للصحافة والخطابة من تأثير. والرأى العام القائم على الجور والاستبداد عدو شديد للحرية لا يقل خطراً عن القوانين الاستبدادية .

إذن لا تشريعات الدولة ولا أجهزتها التنفيذية والإدارية هما التجسيد الوحيد لقوتها وسلطانها على الأفراد ، والحد من الحرية

الفردية ، ذلك أن ثمة مظهر آخر من مظاهر القوة يمارس نوعاً من القهر والإرهاب أزاء المبادرات الفردية والأفكار الجديدة ، ونعنى بهذا المظهر قوة الرأى العام الذى تواليه الدولة .

فالرأى العام لدى الدولة المستقرة هو فى غالب الأحوال قوة رجعية تميل إلى دعم ما هو قائم فى وجه كل غريب وجديد . ويرجع هذا فى رأى رسل إلى ثلاثة أسباب :

(١) غريزة الإتفاق مع الجميع ، تلك الغريزة الموجودة لدى سائر الحيوانات التى تعيش فى شكل قطيع ، والتى تدفعها إلى قتل أى فرد يشذ بشكل واضح عن ملامح هذا القطيع .

(٢) الإحساس بعدم الارتياح والأمان أزاء الآراء التى تشككنا فى معتقداتنا التى انتظمت عليها حياتنا .

(٣) ترتبط الآراء القديمة عادة بمصالح ثابتة ، يحرص عليها أصحابها ويخشون زوالها ، ولهذا ينفرون من كل ما هو جديد، ومحاربة الكنيسة للعلم والعلماء كانت نتيجة لهذا السبب .

وتتفاعل هذه العوامل فى قمع أى فكرة جديدة ، وتدعمها مجهودات الدولة فى فرض نمط من التعليم والدعاية والإعلان ، يعمل على ترسيخ القيم السائدة فى نفوس البشر ، ناسية أن الآراء الجديدة فضلاً عن

أنها تعبير عن الذات المتميزة، فهى فى معظم الحالات ، أحد أسباب التقدم والتطور.[٤] *

يتساءل رسل : لماذا يستسلم الناس عن طواعية لسلطان الدولة ؟

يجيب على هذا بأن ثمة أسباب شتى لهذا الاستسلام بعضها قديم، الآخر حديث العهد جداً وعظيم الأهمية. أما السبب القديم لطاعة الناس للحكومة، فهو الولاء الشخصى للسلطان ، وهو ما يعرف بالشعور القبلى الذى يعد اليوم السند الأساسى لقوة الدولة .

إن الشعور القبلى بخاصة هو الذى تتولد عنه وحدة دولية قومية.

ولكن هذا الشعور ليس وحدة المسئول عن قوة الدولة، إن قوتها تأتى نتيجة الخوف :

الخوف من الجريمة والفوضى فى الداخل ، الخوف من الاعتداء الذى يأتى من الخارج .

وما يحمى هذه الشرور هو سلطان الدولة ، والإيمان بأن كل مقاومة للدولة تعد من الشرور .

---

* راجع هنا : دور الدعاية والإعلان (الرأى العام) فى طمس معالم الحرية الفكرية ، الضغط الذى يقع على العقل بفضل وسائل الأعلام حيث يفكر الإنسان وفقاً لما شكله الآخرون ص ٧٢ : ٧٨ . د. زكى نجيب : عن الحرية أتحدث .

الدولة : أضرارها، محاسنها :

يقـول رسل : « إن الشـر الذى يجلبـه سلطان الدولة المفـرط فى التضخم شر عظيم » .

إن الغرض الجوهرى للحكم، هو إخـماد روح العنف داخل البلاد ، وتيسيره خارجها .

إن الدولة تصبح شراً بكثرة ما تقيمه من الحواجز بينها وبين غيرها من الدول ، وهى حينما تشرع فى حرب عدوانية تصبح عصابة تقوم على السلب والنهب ، وإذا ضربنا عن الحرب صفحاً وجدنا أن الدولة الحديثة شيء ضار بسبب تضخمها ، وما ينتج عن هذا التضخم من إحساس الأفراد بالعجز .

والمصدر الأول من مصادر الضرر الذى تتسبب فيه الدولة هو أن تكون القوة غايتها الكبرى ، وفى سبيل هذه الغاية تنتقص حرية الأفراد. لابد إذن أن تسوى المشكلات بالطرق الودية وليس باستخدام القوة .

ويذكر رسل فى كتابه « أسس إعادة البناء الاجتماعى » أن للدولة – على وجه العموم – غاية طيبة تتمثل فى إحلال القانون محل القوة فيما بين علاقات البشر .(٥)

وعلى الرغم من أن القانون خيراً من القوة ، فإنه إلى الآن ليس الوسيلة المثلى لحسم المنازعات . إن القانون جامد شديد الجمود ، وطالما رأيناه ، يؤيد ما هو فى سبيله إلى الفناء . فلا بد من تعديل القانون بين الحين والآخر .

لهذا نرى رسل فى كتابه " آمال جديدة فى عالم متغير " يقرر أنه من الخطأ أن نعد القانون بديلاً للقوة * . فالحقيقة أنه مجرد طريقة لتنظيم القوة ونقلها من الأفراد إلى جماعات أو من الأصغر إلى الأكبر.

وهنا نجده يعدل من رأيه .

حدود تدخل الدولة :

إذا كانت الدولة مفيدة أو إيجابية فى بعض جوانبها ، ضارة أو سلبية فى بعضها الآخر .. فما هى الجوانب التى لا بد أن تبقى، وما هى الجوانب التى ينبغى أن تتضاءل قدر الإمكان ؟

بتعبير آخر :

كيف يمكن أن يكف طغيان الدولة على حرية الأفراد ، وما هى حدود تدخل الدولة المشروع ؟

---

* Law is often represented as an alternative to force, but this is a mistake . law is only away of organizing and concentrating force, and groups or from small groups to large ones (6)

كيف يمكن أن يحدث التوازن بين الحرية والابتكار الفردى من ناحية، وبين الحكومة والتنظيم من ناحية أخرى ؟

يجيب رسل على هذا عن طريق :

أن تترك الدولة أمر تنفيذ الأمور الداخلية للمنظمات المستقلة ، دون أى تدخل من الحكومة ، طالما أن هذه المنظمات تقوم بعملها على الوجه الأكمل ، وأن تقتصر وظيفة الدولة الداخلية على حفظ النظام ومنع الأفراد من استخدام القوة .

ويؤكد رسل أن الدولة لها ثلاث أهداف رئيسية هى:

(١) تحقيق الأمن والطمأنينة .

(٢) العدل .

(٣) رعاية الموارد الطبيعية والاحتفاظ بها . وهذه أشياء جوهرية من أجل تحقيق السعادة البشرية ، وهى لا تتحقق بدون الدولة أو الحكومة.

بالإضافة إلى هذه الوظائف الأساسية ، هناك وظائف فرعية، ولكنها جوهرية فى ميادين الأنشطة المختلفة ، وهى تشجيع القوى الابتكارية فى النطاق غير الحكومى ، والعمل على خلق الفرص التى تكفل ممارسة وتطبيق هذا الابتكار بشكل يعود على المجتمع بالنفع (٧)

إن أبرز الأمثلة التى تؤكد المبدأ القائل بأن ثمة أمورا لا بد من الحصول على الحد الأدنى منها، كى تتحقق الرفاهية العامة ، هو الإجراءات الصحية الوقائية من الأمراض المعدية، فإن حالة واحدة من الطاعون ، متى ترك صاحبها وشأنه ، يمكن أن تؤدى إلى كارثة . ولا يمكن بطبيعة الحال أن يتمسك أى شخص بمبدأ الحرية الفردية كى يطالب بأن المصاب بالطاعون حر فى أن ينتقل هنا أو هناك.

كذلك فإن التعليم الإلزامى يندرج تحت نفس الموضوع ، ذلك أن وجود جماهير جاهلة بين السكان ، خطر يتهدد الجماعة ككل ، ووجود نسبة معينة من الأمية لهو أمر يجب أن تحسب حسابه كافة الأجهزة الحكومية .

كذلك البحث العلمى وما يتطلبه من نفقات باهظة ، من الأمور التى يعجز عن القيام بها الأفراد ، بإمكانياتهم المتواضعة المحدودة .

لكن تدخل الدولة فى كل هذه الأمور، يجب أن يكون من خلال صيغة معينة ، وفى حدود بحيث لا يؤدى هذا التدخل إلى إهدار حرية الفرد.

ذلك أن هذه المسائل التى عرضنا لها، وغيرها من الوظائف لا يمكن قيامها فى مجتمع ليس فيه حكومة .

إن المجتمع – على الرغم مما يقوله الفوضويون – وضع ضرورى لأغراض معينة ، وهو بلا رقابة مركزية يتعرض للفوضى ، وكذلك المجتمع بلا إبتكار يتعرض للجمود .

الحل – فيما يرى رسل – هو إحداث توازن بين دور الدولة أو الحكومة أو السلطة ، دور الفرد والحرية ، بحيث لا يجور أحدهما على الآخر .

فإذا كانت الحرية هى الهدف الذى ننشده من أى نظام إجتماعى ، وإذا كانت الحكومة والقانون هما قيود على الحرية ، فلابد من وجود الدولة ، لأنها ضرورة ، ولكن بالقدر الذى لا يحد من الحرية والابتكار الفردى .

يقول رسل :

« على الرغم من أنه يجب الاعتراف بضرورة وجود نوع ما من الحكومة والقانون ، إلا أنه لا بد من تذكر أن كل قانون وكل حكومة هما فى ذاتهما شر إلى حد ما ، لا مبرر لوجودهما إلا إذا كانا يحولان دون وقوع شر لسلطان الدولة، والترحيب بكل فرصة تتيح الحد من سلطانها بشرط ألا يؤدى ذلك إلى قيام حكم استبدادى».(٨)

الطريقة الوحيدة للمحافظة على قدر كاف من الحرية هى – فيما يرى رسل – ألا يكون هناك استسلام للحكومة لا من الناحية النظرية ، ولا فى الواقع ،لابد من احترام الحرية بين البشر ، فمع تسليمنا بضرورة استمرار الدولة فى صورة من الصور ، يجب التسليم أيضاً بأنه يجب تقييد سلطانها فى أضيق الحدود الضرورية جداً .

إن تمجيد الدولة ، والمبدأ القائل بأنه من واجب كل مواطن أن يخدم الدولة ، عقبتان متطرفتان فى وقوفهما فى سبيل التقدم والحرية .

والسلطة حين تستخدم لإرغام الآخرين على عمل ما لايريدون ، وذلك بفرض السلطة بالقوة ، هنا تصبح السلطة مصدر إزعاج . أما تلك التى تقوم على الإقناع والتعليم وهداية البشر إلى الحكمة، وإدراك ممكنات جديدة للسعادة ، هذا النوع من السلطة يمكن أن يعد خير .

وحين يسرى تفويض السلطة من مركز الدائرة إلى محيطها ، فلا بد أن يشعر الفرد بعجزه أمام السلطات القائمة .

ومع ذلك ينبغى إزالة الأسباب أو الأوضاع المسئولة عن هذا العجز، لو أريد للديمقراطية أن تصبح حقيقة ملموسة ، لا ديمقراطية تصدق على نشاط الإدارة الحكومية فحسب. (٩)

إن المجتمع الفاضل لا ينبثق من مجد الدولة ، بل من نمو الأفراد دون عائق ، من السعادة فى الحياة اليومية، من العمل الملائم الذى يهيئ الفرصة للحرية والإبداع ، وتنمية العلاقات التى تقوم على الحب ، وتستأصل جذور الحسد ليحل محلها التعاطف ، وفوق كل شىء من بهجة الحياة والتعبير عنها فى بدائع الفن والعلم والتلقائية .

هذه الأشياء هى التى تجعل البشر جديرة بالبقاء ، وليس السبيل إليها أن نحنى الرؤوس للدولة، إنه الفرد الذى يجب العمل على تأكيد

كل ما فيه من خير ، كما يجب أن يكون النمو الحر للفرد هو الهدف النهائى من كل نظام سياسى واجتماعى . (١٠) *

التصالح بين الفردية والمواطنة : (١٢)

عرضنا – فى الأجزاء السابقة – للحرية الفردية ، ودور التربية فى تحقيق هذه الحرية ، أثر المعتقدات الأخلاقية والدينية على حرية الفرد .

ثم عرضنا للحرية فى المجتمع ما هى ، وما أهمية المجتمع ، وعلاقة هذا بمفهوم الدولة عند رسل، مساوئها ومحاسنها ، حدود تدخلها ، وما لاينبغى عمله بالنسبة لها ...

وفى كل هذا فإن الحرية الفردية هى المدار والمحور الأساسى وهذا ما جعل رسل يضع هذا التساؤل الهام :

«هل من واجب التربية أن تدرب النشىء ليكونوا أفراداً صالحين أم تدربهم ليكونوا مواطنين صالحين؟

قد يقال أنه لاتعارض هناك بين المواطن الصالح والفرد الصالح، بل هكذا يقول كل من أخذ بالاتجاهات الهيجلية التى تقول أن الفرد

* لقد قضت السلطات على سقراط بالموت ، ولكنه احتفظ بصفاء نفسه حتى اللحظة الأخيرة لأنه أدى رسالته . وفى دولة ذات سلطة واحدة كهذه ، حيث تتحكم السلطة فى كل وسائل البشر ، لابد للعقلية المبتكرة الأصيلة أن تلقى هذا الجزاء . وإذا ما انتهت حالة أى مجتمع إلى هذا الوضع ، فلن يكون فى مقدوره أن يقدم للحياة الإنسانية شيئاً ذا قيمة. (١١)

الصالح هو الذى يعمل على تحقيق مصالح المجموع ، وهذا نفسه هو جوهر المواطن الصالح .

غير أن رسل يرى أن التربية التى تنتج من اعتبار الناشيء فرداً، مختلفة جداً عن تلك التى تنتج من إعتباره مواطن المستقبل ، لأن تثقيف العقل الفردى ليس - كما يبدو - هو نفسه التثقيف الذى ينتج مواطناً صالحاً .

الولاء للوطن وحده غير كاف أن يكون مثلاً أعلى ، لأنه ينطوى على إنعدام قوة الإبدع ، وعلى الرغبة فى الخضوع لأصحاب السلطان ، حقاً إننا جميعاً مواطنون ، ويجب أن يأخذ التعليم فى إعتباره هذه الحقيقة، لكننا مع هذا يجب ألا ننسى أننا فى النهاية لن نكون مواطنين صالحين ما لم نتعرف على إمكانياتنا الكامنة فينا كأفراد .

إن التربية ليست مهتمة برفاهية الفرد ، ولكن بأهداف سياسية ودينية بعيدة المدى . وليس هناك مبرر للافتراض أن الدولة سوف تضع مصالح النشىء قبل مصالحها، ولذا علينا أن نستفسر :

هل هناك أى إمكانية للدولة التى ترى أن مصالحها ، فيما يتعلق بالتربية، سوف تكون موائمة مع تلك المصالح التى للنشىء ؟

ماهو الأمل لتناسب أكثر فيما بين الفردية والمواطنة ؟

فى المستقبل القريب ؟ كيف ينبغى للعلاقة بين الفرد والمجتمع أن تكون ؟

هل نجعل هدف التربية تنمية لنفس الطفل واستعداداته الطبيعية ؟ أم تكون الغاية من التربية هى أن يحدث التجانس بين الطفل والمجتمع المحيط به، وبديهى أن هذاالتجانس لا يكون بتغيير أوضاع المجتمع ليتفق مع مصالح النشىء، بل بتهذيب طبائع النشىء وتغييرها حتى تتلائم مع أوضاع المجتمع .

باختصار: هل نربى النشىء ليكون "مواطناً" أم نربيه ليكون "فرداً"؟؟

النوع الأول يقتضى أن أحد من فرديته بما فيه مصلحة الجماعة التى هو عضو فيها .

أما الثانى فمؤداه أن تنمو الفردية، بما يحقق طبيعتها بغير أن يحدد مجرى نمائها ، ولاء لهذا أو لذلك من مختلف العوامل الاجتماعية .

ولكننا لا نستطيع أن نختار بين أحد الطرفين ، بل يمكن أن أوفق بينهما بحيث أربى الناشىء على أساس هذا التوفيق .

ويرى رسل أنه ليس هناك حلاً حاسماً حول هذا ، ومايجوز لنا المطالبة به هو ألا نحد من إرادة الفرد إلا بالقدر الأدنى الذى يقتضيه كونه مواطناً .

ذلك أن عدم الوفاق بين الفرد والمواطن ، إنما ينبع أساساً من الضغط المفرط من قبل المجتمع .

ويؤكد رسل أن المصالحة بين الفرد والمواطن تتحقق بعدة سبل منها: إزالة الحروب على نطاق واسع ، وإذا تم التوصل إلى ذلك بواسطة إقامة سلطة دولية ، فإن تعليم الوطنية العسكرية سوف لا يخدم أية أهداف.

إزالة الخرافات ، الاهتمام بنوعية الحياة الفردية التى تجعل كل فرد مختلفاً عن الآخر ، البعد عن النمطية ، وتشكيل الأفراد فى قالب واحد .

وأخيراً يؤكد رسل أنه لا بد أن تتسق وسائل التعليم مع أهدافه ومضامينه التى يراد من خلالها تنشئة الإنسان على نحو يحقق إبراز إمكانياته الكامنة فيه كفرد ، كما يفجر فيه طاقات الحب والشجاعة والإبداع والإيمان بالحرية والتقدم كقيم أساسية من قيم الحياة الفاضلة.

الخلاصة التى يريدها رسل ، والتى هى الهدف سواء أكانت التربية خاصة بالفرد أو المواطن ، أن تكون التربية مزيجاً من الحرية والنظام أو توفيقاً بين إرادة الفرد وحريته الابداعية الابتكارية، القدر الضرورى من التماسك الاجتماعى ، ذلك أن زيادة فى أى طرف منهما يؤدى إلى التدمير . (١٣)

الهوامش

(١) راجع هنا : بحثنا " المرأة في فكر جون ستيورت مل" ، موقف مل من حرية الفكر والسلوك ، الاعتقاد . ص٢٣ ومابعدها .

– أيضاً : د. زكي نجيب محمود: عن الحرية أتحدث : جـ١ فقرة ٨ ، فقرة ١١ ، ضمير مكتوم: عن حرية الفرد والتعبير ، الحرية المسئولة ص ٩١ : ١٠٢ .

(2) Russell . B : Sceptical Essays . ch xiii : Freedom in Society . p 169 : 183.

(٣) زكي نجيب محمود عن الحرية أتحدث : ص ٣٢٥ : ٣٣٤ .

(4) Russell. B : Principles of social Reconstruction ch. II . p 44 : 46 .

(5) ------------ : Ibid . p 48 : 54 .

(6) ------------ : New hopes for achanging world . ch viii . The first phargraph. p 162 .

(7) ----------- : Principles of social Reconstruction ch. v. Control and Initative, their respective spheres. p. 89 : 104 .

(8) Russell. B. : Roads to Freedom . ch. v. Government and law. p 96 .

(9) -------------- : Ibid . ch III : The Conflict of Tecknique and Human Nature. p. 63 - 87 .

(10) ------------- : Ibid p. 108 - 110 .

(11) ------------- : Authority and individual .ch. v. p 106 .

(12) Russell B : Education and Social order. ch. I : Individual versus citizen. p 13 : 16 .

(13) ------------ : Education and Social order ch. I. p 27 , 39 , 41 .

* * *

(٤) عـــود على بـــدء
دور الحرية فى خلق عالم افضل

يقول رسل :

« يلعب الخوف فى الحياة اليومية للبشر دوراً أكبر مما يلعب الأمل ، ويفكر الناس فى الخوف أكثر مما يفكرون فى البهجة التى يستطيعون خلقها فى حياتهم »

ويرى رسل أنه كى نحيا حياة أفضل ، علينا تجنب الخوف والقلق ، وإذا أردنا القضاء على الخوف ، فلا يكفى أن ندعو إلى الشجاعة ، بل يلزم أن نتخلص من أسباب الخوف حتى لا تفشل حياتنا .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟

يرى رسل أن المساوئ التى توجد فى الحياة يمكن تقسيمها إلى ثلاث أنواع :

- مساوئ مادية طبيعية كالألم، الموت .
- مساوئ شخصية ، تتعلق بعيوب فى شخصية الفرد أو قدراته ، ومن بينها الجهل ، ضعف الإرادة .
- مساوئ السلطة ، وهذه تشمل كل مظاهر الاستبداد ، كل ما يتعرض للنمو الحر سواء بالقوة ، أو عن طريق التأثير العقلى الشديد - كما يحدث فى نظام التعليم .

وفيما يتعلق بالمساوئ المادية كالموت والألم، فنحن لا نستطيع أن نتغلب عليها ، ولكن يمكننا التخفيف من حدتها ، فإذا كنا لا نستطيع

التغلب على الموت ، فعن طريق العلم يمكن إطالة عمر الإنسان، كذلك لن نستطيع القضاء تماماً على الألم ، ولكن يمكن التخفيف من وطأته إلى أقصى حد عن طريق تهيئة حياة صحيحة للجميع .

أما عن مساوئ الشخصية فهى فى الغالب نتيجة لمساوئ مادية أو مساوئ السلطة .

ويرى رسل أن مساوئ السلطة هى الأولى بالعلاج لأنها أكثرها شراً .

والشر الأساسى فى مجتمعنا الحديث ، والذى يجب القضاء عليه هو الفقر ، العبودية.

ويمكن الحد من مساوئ السلطة عن طريق إتباع نظام فى التعليم يؤدى إلى التوفيق بين الفردية والابتكار وخلق روح التعاون من ناحية ، وبين دور الدولة من ناحية أخرى .(١)

يقول رسل :

لن نستطيع القضاء على السلطان المفرط الذى تتمتع به الدولة، كما أنه ليس فى إمكاننا أن نبث روحاً جديدة فى التعليم خلال أيام قليلة، فماذا يمكن عمله ؟

يجيب رسل على ذلك فيقول :

لا داعى لأن يفقدنا الخوف من العجز عن أن نفكر ، إذا توافرت لدينا الرغبة فى أن نأتى بأمل جديد فى هذا العالم . وهنا لا بد من توافر عاملين :

١) وجوب العمل على تشجيع النمو والحيوية لدى الأفراد والجماعات.

٢) مراعاة ألا يكون نمو جماعة أو فرد على حساب جماعة أخرى .

لا بد من توافر الاحترام والحرية .

لا بد من توحيد حياتنا دون ما تضحية بالفردية .

« إن الإحساس الداخلى بالحرية لا حدود لقيمته ، والمجتمع الذى يحافظ على هذه الحرية لهو مجتمع مرغوب فيه رغبة لا نهاية لها ، وإن ما يقضى على النمو الإنسانى هو إرغام الفرد أن يعمل ما هو ضد إرادته أو رغبته »* (٢)

---

* راجع هنا : دعوة سارتر إلى حرية الإنسان فى كل مكان والتحرر من الخوف والاستعباد في شتى صوره .

فى الجزء الخامس من " المواقف "، وفى مجلته الأزمنة الحديثة (بالاشتراك مع ميرلوبونتى Merleaw ponty) حيث تعبر هذه المجلة عن آراء سارتر الداعية إلى الحرية ومقاومة الظلم والاحتلال .

كذلك مشاركة سارتر فى النضال من أجل السلام ونبذ الحرب - على نحو ما فعل رسل - وقد رأى فى هذا أن العداء المنظم للشيوعية من جانب اليمين يشكل =

« إن المجتمع الذى يصبح فيه كل فرد عبداً للجماعة لا يسمو بكثير عن المجتمع الذى يصبح فيه كل فرد خاضعاً للحاكم المستبد . » (٣)

إن عصرنا بحاجة إلى بعض الأشياء يكتسبها ، والبعض الآخر يتجنبه. إنه بحاجة إلى حب المعرفة، الأمل ، الدافع إلى الابداع الخلاق.

أمّا ما يجب أن نتجنبه، وما أدى به إلى حافة الهاوية، فهو القسوة ، الحسد ، الجشع ، المنافسة الغير بناءة ، والبحث عن العقائد الذاتية التى لا تتفق مع العقل .

= واحداً من أهم العقبات التى تواجه تخفيف حدة التوتر الدولى .
اشترك سارترفى يولية ١٩٦٦ فى " محكمة رسل" لمحاكمة مجرمى الحرب فى فيتنام، وتولى رئاسة هذه المحكمة فى العام التالى عند وفاة رسل . وواجه شعب الولايات المتحدة بمسئوليته عن تلك الحرب .
هذا وتعتمد فلسفة سارتر على فكرة الإيمان بالقيمة العليا للوجود الإنسانى ممثلاً فى الفرد .
والحرية بهذا المعنى عند سارتر هى عبارة عن رفض الوضع الاجتماعى وقلب القانون. وقد ظهرت مجلة الأزمةالجديثة لتعبر عن التغيير في كل شيء، من أجل تغييرالوجود وجعله أفضل.
هكذا واصل سارتر دعوته ورسالته فى تأييد الحرية ومحاربة الظلم والقهر، وعاش فى معركة من أجل الإنسانية والعدالة ، وكانت دعوته فى كل هذا شبيها بدعوة رسل الصريحة إلى الحرية والدفاع عنها ضد كل محاولة تستهدف النيل منها .
(راجع : رسل وتيار العصر : ارتباط رسل بالفكرالوجودى ، رسل وسارتر : ص ٢٠ : ٣٠).

ما نحن بحاجة إليه هو المحبة والرحمة، فإن أحسست بها كان لديك دافع إلى البقاء، وحافز على العمل، وسبب للشجاعة ، وضرورة ملحة إلى الأمانة العقلية.

إن أحسست بالمحبة امتلكت كل ما يحتاج اليه أى أمرئ من الدين.*

إن العالم الذى ينبغى علينا أن نسعى إليه هو عالم تكون فيه الروح الخالقة حية ، وتكون الحياة مخاطرة، حافلة بالبهجة والأمل ، تقوم علي نزعة البناء والتجديد ، لا الرغبة فى الاحتفاظ بما نملك أو انتزاع ما يملكه غيرنا .

وأخيراً عالم تسوده "الحرية" بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

إن مثل هذا العالم ممكن ، ويبقى أن نسعى إلى تحقيقه .

* * *

---

* وهنا نجد رسل يعود إلى ما أكد عليه سابقاً وهو أن الدين ليس هو الطقوس والشعائر المجردة ، بقدر ما هو التحلى بالفضائل الأخلاقية التى إذا قام المرء بها بصدق أدت به إلى جوهر الدين ، وهذا الموقف شبيه بموقف كانط من الدين .

الهوامش

(1) Russell. B : Roads to Freedom. ch. viii . The world as it could be made . p. 139 : 155 .

(2) ------------- : The Principles of Social Reconstruction. ch. viii. p. 178 - 180 .

(3) ------------- : Authority and individual. ch. iv. p 84 .

★ ★ ★

خاتمة وتقييم

لقد كان لرسل عظيم الأثر فى دعوته إلى الحرية ، ودراسة المجتمعات الإنسانية ، والبحث عن أنسب الوسائل لتحقيق مجتمع فاضل .

ولا أحد يستطيع أن ينكر قيمة أرائه فى كل فرع من فروع الحياة ، ولاسيما فيما يخص الشئون العملية ، التربوية ، والتعليمية والاجتماعية والسياسية فى شتى نواحيها .

لقد جعل رسل من التعليم القائم علي تنمية الحرية الفردية والابتكار الحر ، الحجر الأساسى لتكوين مجتمع فاضل .

وتبرز قيمة رسل فى توجيه النشىء إلى البحث عن ذواتهم، بهدف اكتشاف مواهبهم، وميولهم الخاصة ، فيؤدون ما تؤهلهم له طبيعتهم وليس ما يفرض عليهم من الخارج .

كما يتضح لنا من خلال هذا العمل ، جانب منير فى إنسانية رسل حين دعا إلى نبذ الحرب ، الكراهية ، والبغضاء، وجعل روح التعاون والمحبة أساس لكل تعليم سواء على المستوى الفردى أو الاجتماعى .

وقد اكتسب رسل ذيوعاً وشهرة عالمية كواحد من أبرز المدافعين عن العدل والسلام والحرية فى كل مكان ، بالاشتراك مع معاصره

الفيلسوف الفرنسى سارتر ، وكان لهذا أثر طيب على المستوى الدولى والعالمى . *

هذا ولم تكن أفكار رسل بجديدة على أذهاننا ، فمنذ أفلاطون وحتى وقتنا هذا ، والمفكرون يولون جانباً من عنايتهم لما ينبغى أن يكون عليه النظام التربوى والاجتماعى والسياسى ومقومات كل منها ، ولكن تكمن

* فى عام ١٩٥٥ قام بجمع توقيعات عدد من أبرز العلماء فى العالم حول بيان يدعو إلى تفهم اخطار الحرب النووية ، وإلى نبذ الحروب بشكل عام ، وكان من بين العلماء الذين وقعوا على البيان العالمان الشهيران ألبرت أينشتين ، وجوليو كورى وقد دعا البيان إلى عقد مؤتمرات متتالية للعمل من أجل السلام .
وفى عام ١٩٥٨ أصبح رسل رئيساً للمعسكر الداعى إلى نزع السلاح .
وقد لعب رسل دوراً كبيراً فى الأزمة الكوبية عام ١٩٦٢وفى النزاع الصينى – الهندى، كما وقف إلى جانب العرب مع إسرائيل .
وفى عام ١٩٦٤ قام بإنشاء مؤسسة رسل للسلام .
وآخر ما أصدره من الكتب هو : كتابه " جرائم الحرب فى فيتنام " الذى صدر فى عام ١٩٦٧، وذلك بعد فترة وجيزة من عقده للمحكمة الشهيرة التى أدان فيها الرئيس الأمريكى جونسون ، وشارك فيها الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر .
وفى مايو ١٩٦٧ قام بتوجيه رسالتين إلى جمال عبدالناصر ، ليفى اشكول رئيس مصر واسرائيل يحذرهما من خطر إندلاع الحرب بين دولتيهما .
وكان آخر الرسائل التى وجهها رسل إلى العالم كانت رسالته إلى المؤتمر البرلمانى الذى انعقد فى القاهرة فى أول فبراير ١٩٧٠ ، ودان فى هذه الرسالة سياسية إسرائيل الوحشية والتوسعية على الأراضى المصرية .
وفى ١٩٧٠ توفى رسل وتوقف هذا الفكر الذى اقترن فيه القول بالفعل، وتناغم النظر بالعمل .

عظمة رسل فى قدرته على صياغة ما يهدف إليه كل فكر ، ومعالجة هذا كله فى ضوء مبدئه الأساسى وهو " حرية الفرد "التى جعل منها نقطة الارتكاز وحجر الزاوية فى بناء المجتمع .

مما لا شك فيه أن هذا العمل قد أنطوى على محاولة جادة من أجل فهم الجوانب العملية فى فلسفة رسل فى ضوء هذا المبدأ " الحرية " ، وهذه نظرة جديرة بالإعجاب ، ولكن هذا الإعجاب ، وهذه الإيجابيات التى أدلى بها رسل ، لا تجعلنا نتغافل عن بعض الثغرات التى تعرض لها رسل فى هذا السياق .

(١) قام رسل بمناقشة ونقد آراء عدد من الاتجاهات والمدارس التى اهتمت بقضية النظم ، كما قام بدراسة ملامح النظام الماركسى والنظام الرأسمالى ، وهما النظامين اللذين عاصرهما ، مبيناً مزايا كل منهما ومساوئه ، فى محاولة لطرح البديل الأمثل . ذلك لأن المجتمع الصناعى المعاصر فى صورتيه الرئيسيين : الرأسمالية ، الاشتراكية ليس هو الصورة المثلى للمجتمع الأفضل .

– وقد رأى رسل نتيجة لهذا النقد أن المجتمع الأمثل هو الذى يعمل علي تحقيق أكبر قدر ممكن من الكفاءة الانتاجية ، مع تهيئة السبل إلى المزيد من التقدم التقنى المستمر ، ضمان أكبر قدر من العدالة ، تحرير

الدوافع الأبداعية ، هذا على المستوى الاجتماعي ، أما على المستوى الأخلاقي ، فالمجتمع الأمثل هو الذي يتحقق فيه أكبر قدر ممكن من الفضائل ، لتحقيق السعادة والمحبة ، وتذوق الجمال ، وروح المعرفة ، والبعد عن التنافس .

ولكن رسل لم يعرض لمقومات هذا النموذج وتفصيلاته ، وكيف يمكن تحقيقه عملياً ، ولكنه أشار إليه إشارات عابرة ، وأوضح أن هذا النموذج الأمثل هو مزيج من هذه الإتجاهات التي تعرض لها بالنقد ، فهو ينتقي من كل منها خير ما فيها ، من الرأسمالية حرصها على الإرادة الفردية ، والحافز الفردي ، ومن الاشتراكية تلافيها للاستغلال الذي يترتب على الملكية الخاصة ، كما ينتقي من الفوضوية رفضها لمؤسسات القهر الذي يمارس أحياناً بإسم القانون إزاء الأفراد .

والنظام الذي يتحقق فيه هذا كله هو النظام الذي يمكن أن نطلق عليه " الفيدرالية الاقتصادية المتدرجة" كما سبق أن أوضحنا .

ولكن هذا النموذج التوفيقي الذي يقترحه رسل والذي يتصور أنه ممكن التحقيق من الناحية العملية إنما يعيبه أكثر من أمر : فهو أولاً يمثل إطاراً عاماً شديد العمومية مما يجعل منه مجرد نموذج نظري ، يفتقر إلى الأسلوب العملي لمحاولة تطبيقه.

كنا نود من فيلسوف ناقد للأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة مثل رسل أن يفكر لنا فى نظام نقيمه مكان هذه الأنظمة الفاسدة ، ولكنه اكتفى بالنقد وأسرف فيه .

(٢) فيما يتعلق بالنظام التربوى أكد رسل على أهمية التربية التى تهدف إلى خلق الفرد ، وذلك من منطلق دعوته إلى الحرية .

وقد رأى – على نحو ما أوضحنا أن المعلم هو الركن الأساسى فى العملية التربوية ، وعليه أن يقوم بدوره على أكمل وجه ، ووضع رسل عدة نقاط لابد أن تتوفر فى المعلم أهمها : الاستقلال الفردى ، البعد عن التعصب ، إيجاد روح المودة والتسامح والتعاطف بين المعلم وطلابه، وإقامة العلاقة فى جو من الحرية ، وليس علي أساس الطاعة العمياء .

وكان رسل فى تأكيده علي دور المعلم ، ووضع أهداف للتربية يقول : لابد أن يتصف المعلم .... ينبغى أن يكون المعلم .... ، وهذا كله يعبر عما سيكون وليس عما هو كائن بالفعل .

ما أضخم العبء الذى ألقاه رسل على المعلم ، وما أيسر أن نضع المبدأ ، وما أصعب أن نرسم الحدود الفاصلة عند التطبيق ، فالمعلم هو الذى يطلق العنان لطبيعة الطالب آنا كى تعبر عن نفسها تعبيراً حراً فردياً ، وهو الذى يكبح تلك الطبيعة آنا حرصا على صالح الآخرين ،

وهو أيضاً الذى يزن المقدار الذى يقدمه للطالب من معلومات ، بحيث لا تنطمس شخصيته الناقدة إنطماساً يقضى عليها .

تعرض رسل بالنقد الشديد لما أسماه بالتربية السلبية ، وهى التى تفتقر إلى الحرية ، وتتمثل فى التربية التى تهدف إلى خلق المواطن ، وليس الفرد . ذلك أن التربية التى تهدف إلى خلق الفرد الصالح ليس هى التربية التى تهدف إلى خلق المواطن الصالح فيما يرى رسل ، لأن النوع الأخير يؤدى إلى كبح الإمكانيات الإبداعية وقتل ملكة التفكير النقدى الحر فى نفوس الأفراد ، ويعمل على تدعيم الولاء القومى الزائف بمعناه الضيق فى نفوس الناشئين .

وهكذا يصبح التعليم قوة جديدة تعمل على تشكيل غريزة القطيع فى أسوأ أشكالها ، ويصبح فى النهاية عاملاً من عوامل الكراهية والحرب والعدوان ، بدلاً من أن يصبح عاملاً من عوامل السلام .

فالتربية السلبية التى تتمثل فى السلطة أياً كان نوعها : السلطة الدينية ممثلة فى الكنيسة أو السلطة السياسية ممثلة فى الدولة أو سلطة الحشد أو القومية ... كل هذا يقف فى وجه البحث الحر ، ويؤدى إلى قتل ملكة التفكير ، وإلى الصمت المروع .

كل هذا مقبول إذا كان من منطلق حرص رسل على تحقيق الحرية ، وتحمسه الزائد لهذه الدعوة، ولاغبار عليه ، ولكن ما يصدق على

التاريخ قد لا يصدق على الدين ، بالإضافة إلى أن هذا ليس قاعدة يمكن تعميمها، فتحريف التاريخ نتيجة للولاء القومى جائز ، أما القول بأن تدريس الدين فى المدارس يؤدى إلى قتل ملكة التفكير الحر ، فهذا مبالغ فيه إلى حد كبير .

لا يمكن أن تكون حرية البحث مكفولة مادام الهدف من التربية هو خلق أجيال من المؤمنين لا من المفكرين ، حيث يجد النشىء نفسه إزاء عقيدة جامدة، والدين على هذا النحو يكون عاملاً على أن ينشأ الفرد راضياً بما قسم له فى الحياة الدنيا ، أعنى ألا ينشأ ثائراً داعياً إلى إنقلاب ، ومن ثم ترى الدين معيناً للدولة على بقاء الأنظمة القائمة، وعلى أن يصاغ النشىء على نموذجها وغرارها .

هكذا كان موقف رسل من الدين ، الذى هو ضار بالتربية لأنه يجعل الفرد يعتمد على التلقين ، والتصديق بآراء مشكوك فى صحتها وهذا يؤدى إلى تعطيل القوى العقلية لدى الإنسان ، ولكننا نقول أنه إذا كان هذا ينطبق على التعليم الكنسى فى العصور الوسطى ، والذى وصفه رسل بالجمود والسلبية ، فقد كان الوضع على النقيض فى نفس المرحلة بالنسبة للدولة الإسلامية ، لم يكن الدين أو الأخلاق الدينية مصدراً من مصادر التخلف والرجعية ، بل كان الإسلام – وسيظل – دعوة صريحة إلى استخدام العقل ، وإلى تحريره من الأوهام

والخرافات ، ومن هنا يمكن القول بانه ليس التعليم الدينى - فى حد ذاته هو مكمن الخطر ، بل إن الخطأ الحقيقى فى المنهج المتزمت فى مناهج التعليم الدينى ، وهذا ما فرضته الكنيسة ، فقد عملت على غرس الاحتقار لهذه الدنيا والزهد فى مغانمها الضئيلة إذا ما قورنت بكنوز الآخرة التى لا حصر لها .

أكد رسل أن الدين المسيحى يقدم للبشر عقيدة " البعث " أو الخلود، وهنا نجد أن الحياة الأخرى أفضل من الحياة الدنيا ، وبالتالى لا داعى لأن نغير من هذه الحياة ، وعلينا أن نرضى بها ، وهذا كله غير جائز فيما يرى رسل .لأنه يتعارض مع تصوره لمعنى الحرية والخلق والإبدع والعمل علي تغيير الواقع إلى الأفضل .

(٣) هذا فيما يتعلق باثر الدين على التربية ، أضرار هذه الاعتقادات على الحرية الفردية .

أما ما يخص موقف رسل من الدين - كما سبق أن أوضحنا - أن الدين محاط بالاساطير منذ الماضى السحيق ، ولا يزال الكثير منها موجود حتى الآن ، ويعلن رسل أنه كلما تقدمت الشعوب ، وازدادت الحضارة والعلم ، أدى هذا إلى تدهور الدين . ذلك أن أغلب التغيرات التى طرأت على العالم ، منذ نهاية العصور الوسطى وبدايات عصر

النهضة ، يعود إلى الاكتشافات العلمية الحديثة التى أدت إلى إنحلال الدين الكنيسى ، ونسف جزء كبير من صرح المذهب الكاثوليكى .

يقول رسل " إننى أنظر إلى الديانات الفوق طبيعية على أنها لا يمكن الدفاع عنها عقلياً ، وهو يعلن صراحة أنه خارج على كل الأديان المعروفة ، يتمنى أن تختفى كل أنماط الاعتقاد الدينى ، لأن الدين مرحلة طفولية يجب تجاوزها .

كما يرى رسل أن بقاء الدين مرهون باستمرار الحروب وتعاسة البشر ، أما إذا استطاع البشر حل مشاكلهم ، فإن الدين سيختفى . هذا هو موقف رسل من الدين ، وهو موقف مرفوض تماماً .

قدم لنا رسل صورة للدين لا نوافقه عليها ، واقتصر فى حكمه على الدين من وجهة نظر ذاتية، وقد حالت نظرته هذه إلى القول بوجود إله خالق على نحو ما تقره الأديان ، بل أنكر فكرة وجود الله ، وأنكر الخلود أيضاً استناداً إلى أن هذه الأفكار خارج نطاق العقل البشرى، والخوض فى هذه المسائل يعد موضوعاً شائكاً للغاية ، هذا بالإضافة إلى أن الدين نزعة ذاتية وتجربة شخصية خاصة بالوجدانات الفطرية .

من قال أن تقدم الحضارة والعلم كفيل بالقضاء على الدين ، وهل يستطيع العلم وحده أن يحل كل المشكلات التى تواجهها البشرية .؟؟

إننا لا ننكر بطبيعة الحال أننا نعيش فى عصر العلم ، لكننا نرى أن هذا بعينه هو السبب فى تزايد الحاجة إلى القيم الأخلاقية والدينية ، بل إننا نقول أن أبرز مظاهر الصراع فى العالم الغربى ، وأزمة الحضارة الأوربية إنما نشأ نتيجة تخليها عن الدين والقيم الروحية .

(٤) أما فيما يتعلق بالأخلاق ، وأثر المعتقدات الأخلاقية على حرية الفرد ...

رفض رسل القيم الموضوعية والأخلاق المتعالية ، وأثبت ذاتية القيم . فالأحكام الأخلاقية تختلف عن مثيلتها فى العلم ، حيث أن الأولى ليست مما يوصف بصواب أو خطأ ، وبالتالى لا يجوز أن تكون علماً . بل هى مما يعبر عن رغبة أو إنفعال ، وإن كانت الرغبة غير شخصية ، وعلى هذا ، ما يجعل الفعل خيراً أو شراً ، ليس أنه يصدر عن سلطة خارجية (دينية أو سياسية أو اجتماعية) بل لأنه يصدر من داخل الفرد ، وكل ما يصدر عن الحب - فى رأى رسل - فهو خير وما يصدر عن الكراهية ، فهو شر . والخير هو ما يحقق الانسجام والتوافق بين الرغبات البشرية .

وقد عرف رسل الحياة الطيبة بأنها مزيج من الحب والمعرفة ، وهذا جميل على المستوى النظرى ، إذا حاولنا تحقيقه .

عرض رسل للتفرقة بين الأخلاق الفردية ، الأخلاق الاجتماعية ، التى يميلها الوضع السياسى أو الاجتماعى (ما يسمى بالأخلاق المدنية)

وإنطلاقاً من دعوته إلى الحرية ، وتحمسه الشديد لها نراه يحبذ الأخلاق الفردية، ولكن هذا لا يمنع من احترام القانون ، لأنه لا توجد حرية مطلقة، ولاعبودية مطلقة. احترام القانون واجب وأساسى ، ولكن بالقدر الذى لا يعرقل الحرية الفردية .

ويدعونا رسل إلى التمسك بالأخلاق التى تدعو إلى الأمل والتفاؤل أكثر من التى تدعو إلى الخوف والخطيئة والشعور بالذنب ، لأن هذا سيجعل الحياة مستحيلة .

" إن ما أريد أن أضعه محل الناموس الخلقى بالمعنى القديم – الذى يدعو إلى التحريم وكبح النفس وإنكار الذات – هو تشجيع جميع الدوافع الخلاقة وإتاحة الفرص لها ، وبالتالى فتحرير الناس من الخوف هو أساس الأخلاق ".

أما فيما يتعلق بالحرية فى المجتمع ، ونظرية رسل فى الدولة ، فآرائه تتسم بنوع من الاعتدال ، والبعد عن الحماس الزائد ، كما فى مواضع أخرى .

أوضح رسل معنى الحرية ، وأكد أنه لابد لكل إنسان أن يتمتع بهذه الحرية ، ولكن فى الحدود التى لا تضر الآخرين ، سواء أكانت هذه الحرية تخص الفكر أو الاعتقاد .

والحرية هنا لا تتحقق إلا فى المجتمع ، وبالتالى لابد من التوافق بين الحرية الفردية - التى لها حدود ، وبين حرية الأفراد داخل المجتمع .

أكد رسل أن الدولة - رغم مساوئها - إلا أنها ضرورة من ضرورات الحياة . ولكن السلطة الزائدة والجائرة للدولة شر فى رأى رسل . وقد رأى أن تأثير الرأى العام يعد العدو الأكبر للحرية ، والمبادرة الفردية ، والأفكار الجديدة . من هذا يتبين لنا أن رسل وصل هنا - إلى نفس الثنائية التى أكدها فى مجال التربية ، الأخلاق ، وهى أنه لابد من احترام حرية الفرد أولاً ، ومن واجب الدولة أن ترعى هذه الحرية لا أن تكون سبباً فى الحد منها عن طريق سلطانها المفرط .

والمجتمع الفاضل - فيما يرى رسل - لا ينبثق من مجد الدولة ، بل من نمو الأفراد دون عائق .

وينتهى رسل من هذا إلى التوفيق بين الفردية والمواطنة ، فيما يتعلق بالتربية ، التوفيق بين الحرية والنظام ، بين إرادة الفرد ، القدر الضرورى من التماسك الإجتماعى .

وختاماً نقول أنه مهما كان من أمر المآخذ العديدة التى استهدفت فكر رسل العملى ، خصوصاً فيما يتعلق برفضه للدين ، إلا أن هذا لا يقلل من قيمة رسل كفيلسوف نجح إلى حد كبير فى معالجة مشكلات عصره ، وأن يجعل من الحرية قيمة شاملة سواء على المستوى النظرى أو العملى .

ويكفينا أن رسل نادى بالدعوة إلى التحرر من الخوف والقلق ، ودعا إلى احترام حرية الفرد ، وإلى عالم تسود فيه روح الخلق الحى ، الإبداع ، عالم تكون الحياة فيه حافلة بالبهجة والأمل ، وفوق كل شىء عالم تسوده الحرية ....

هذه دعوة منا - إلى جانب رسل ، ونأمل أن نسعى بجهودنا المشتركة إلى تحقيقها .

وصدق رسل حين قال : " إن الدنيا هى دنيانا نحن ، ويتوقف علينا أن نجعلها فردوساً أو جحيماً " .

* * *



المصادر والمراجع

English Soures :

1) Russell . B : Afree Man's worship. london 1921.

2) ------------ : Authority and individual.
The Reith lectures . for 1948 - 9.
George Allen Unwin . london 1910.

3) Russell B : Education and Social order.
George Allen. london Ltd. F. P. 1932.

4) Russell B : Elements of Ethics , london 1910
----------- New Hopes for a changing world N. Y. 1992.

5) ----------- : On Education, Education and the good life N. Y. 1962.

6) ---------- : Our Knowledge of the External world . G. Allen, london, 1926.

7) ----------- : Outline of philosophy , london 1927.

8) ----------- : Power : Anew Social Analysis N. Y. Norton and Co. 1938.

9) ----------- : Principles of social Reconstruction. london. N. Y. 1971.

10) ---------- : Religion and Science. london. 1935.

11) Russell B: Roads To Freedom : Socialism, Anarchism, and syndicalism. G. Allen and unwin. 1918.

12) ----------- : Sceptical Essays, G. Allen and unwin. london. 1959.

13) ----------- : The Human Society in Ethics and politics, G. Allen and unwin. london 1938.

14) ------------ : Why I am not acommunist . london.1926.

15) Russell. B : What I believe. N. Y. Dullon and Co. 1925.

مراجع :

- Robert E. Egner and lestar. E. Domonn : The Basic writing of B. Russell.

  G. Allen and unwin. Ltd. 1961.

  Part X : The good life, The Moral rule p. 371 : 380

  : The aims of Education p. 413 : 429.

  : The Function of ateacher. p 435 : 441.

  Part xi : philosophy and poltics. 454 : 467; why I am not a commumist. 479 : 481.

- Encyclopidia of ph. volume 7 : 8.

  Russell. Ethics and The Critique of Religion p. 252 : 257.

- Harper and Row, : Six Existentionlism Thinkers. (Studies of kierkegaard, Nietsche, Heidegger, Jaspers, Marcel and Sartre) New. York. Macmillan 1959.
- Leo Rostem, ed. : Aguide to the Religion of America. New. York. 1955.
- Walter Kaufmann :" Existentialism is a Humanism (Sartre) in Existentialism from Dostovesky to Sartre) New York. 1956.

المصادر والمراجع العربية :

(أ) الكتب المترجمة :

برتراند رسل : السلطة والفرد .
ترجمة محمد بكير خليل ، درالمعارف ١٩٥٨ .

———— : سُبل الحرية ، ترجمة عبدالكريم أحمد ، مراجعة على أدهم . دار الكتب المصرية (بدون تاريخ) .

چان بول سارتر : الأيدى القذرة . (مسرحية من ستة فصول منشورات دار الحياة . بيروت . بدون تاريخ) .

———— : دروب الحرية : (رواية من ثلاثة أجزاء) سن الرشد ، وقف التنفيذ ، الموت فى النفس ، ترجمة : سهيل إدريس (بدون تاريخ).

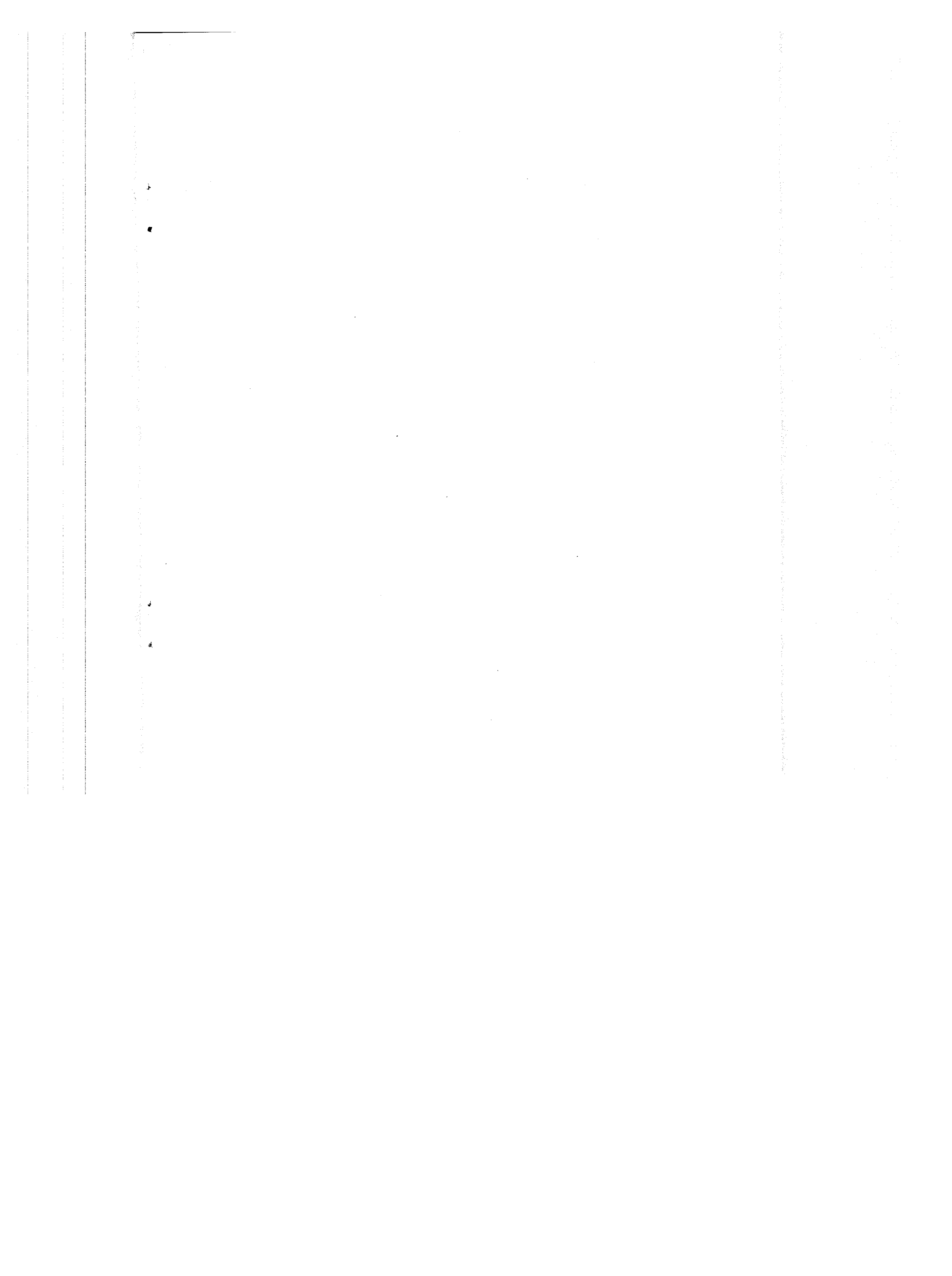
ســـــــارتر : ضمير عصره : كرانستون ، دانتو ، دار مطابع المستقبل . الفجالة ، اشراف : د. رءوف سلامة موسى (بدون تاريخ)
چون ماكورى : الوجودية : ترجمة : د. إمام عبدالفتاح ، مراجعة : د. فؤاد زكريا ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٦ .
هيدجـــــــر : جرين مارجورى، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ، ١٩٧٣.
هيدجـــــــر : نداء الحقيقة . ترجمة عبد الغفار مكاوى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

(ب) المراجع :

- حبيب الشارونى : أزمة الحرية بين برجسون وسارتر . دار المعارف ١٩٦٣ .
- زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية ط ٢ . مطبعة مصر . القاهرة ١٩٦٢.
- زكى نجيب محمود : برتراند رسل دار المعارف ط٢ (بدون تاريخ).
- ـــــــــــــ عن الحرية أتحدث . دار الشروق . ط ١ ١٩٨٦ .
- سامية عبد الرحمن : صموبل الكسندر : رائد الواقعية ، دار البيان ط١ ، ١٩٩٤.
- ـــــــــــــ : القيم الأخلاقية: دراسة نقدية فى الفكر الإسلامى والحديث والمعاصر ، دار النهضة المصرية ط ١ : ١٩٩٢ .

- سامية عبد الرحمن : المرأة فى فكر جون ستيوارت مل . ط ١ دار الثقافة : ١٩٩٩ .
- كيركجورد : رائد الوجودية . ط ١ . د. إمام عبدالفتاح . دار الثقافة ١٩٨٦ .
- مجلة الفكر المعاصر : العدد الخامس والعشرون ، دار الكاتب المصرى. القاهرة ١٩٦٧.

★ ★ ★



الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع
٨٩٤٤ /٢٠٠٠